

مهرجان القراءة للجميع

الاعمال الابداعية

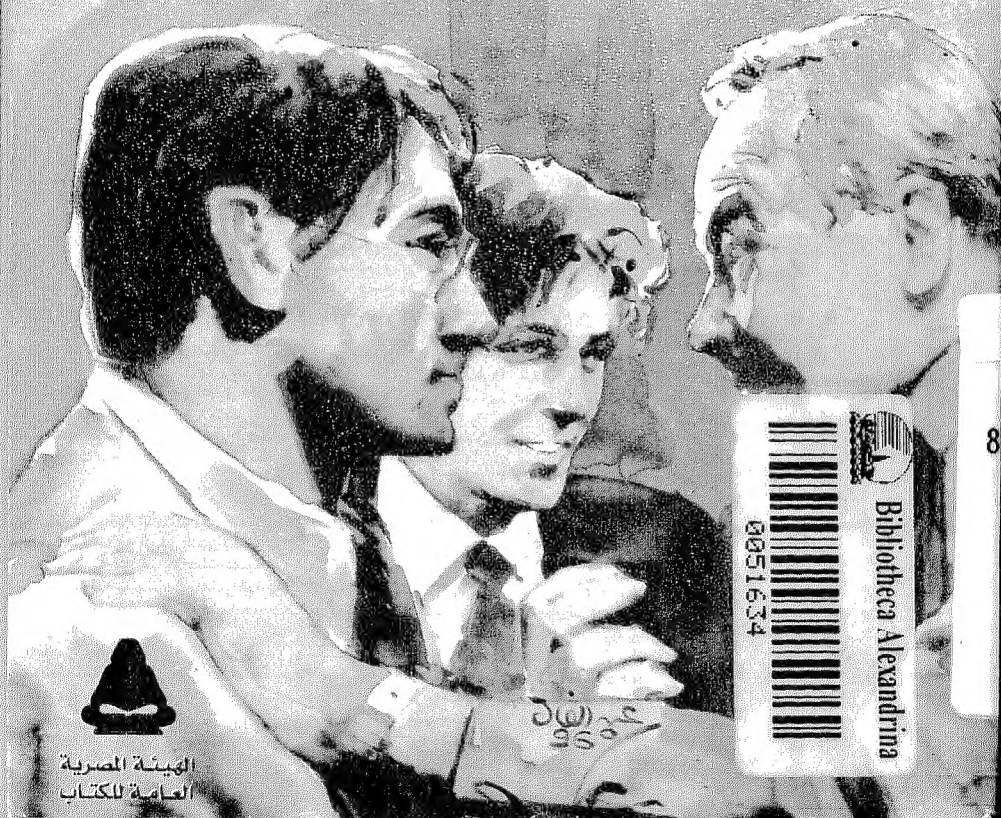
مكتبة

الاسيرة

1999

المصاييح الزرق

محمود تيمور



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



Bibliotheca Alexandrina



0051634

المصاييح الزرق

المصابيح الزرق

محمود تيمور



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

المصاييح الزرق

محمود تيمور

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب، تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

لمحة

في «مصر» وطننا الأعزّ ، كانت « المصاييح الزرقُ »
— يوماً ما — رمزاً لعهدٍ ساد فيه ظُلم وظلام ، هو عهدُ
الاحتلال ...!

وكم في الحياة البشرية من «مصاييح زرقٍ» يضل في
ظلماتها العقل ، وتزِل في ظلالها النفس ...!

وكما انكشفتِ « المصاييحُ الزرقُ » في عهدِ الاحتلالِ
عن نورِ حرية واستقلال ، يتجلى في الشخصية الإنسانية ،
أحياناً ، خلال زُرقةِ الملابسات ، وعُتمةِ الأحداث ، فجرٌ
مشرقٌ ، ونور بهيج ...

فمن الشر يُولَدُ خير ...!

ومن الرّجسِ ينبُعُ طُهرٌ! ...
ولربما سطع النور من جَمْرٍ! ...
وذلك سرُّ « المصاييح الزرق » ... إن
كان لها سر! ...

محمود نجور

القصة التي أروىها لك الساعة ، وقعت

أحداثها في صيف عام ١٩١٦ م.

أحس ابتسامة تعلو فمك ، وهمسة تختلج بها شفتاك .

يالاه من تاريخ طال عليه الأمد ...

نعم ... ما أبعد من عهد ، مضت عليه أربعون من

السنين أو تزيد ... بيد أن صورته تتراعى لعيني اللحظة ؛

كأنها وقعت أمس الدابر ...

كان للأحداث التي أروىها لك في هذه القصة ، أثر

عميق في قلبي ، لا يحويه كثر الأيام ...

الإسكندرية ... يولية سنة ١٩١٦ م

الحرب العظمى — أعنى الحرب العالمية الأولى — قارب
عمرها الستين. وليس في مُستطاع أحد أن يتكهن بنهايتها،
ولا أن يدرى من يُكتب له الغلبةُ، ومن يكون المهزوم.

الملل قد تسلل إلى القلوب، والشعر مكتظ بالمُصيّفين
من كل فجٍّ؛ إذ حيل بينهم وبين الترحُّل إلى المصايف
الأجنبية في الشرق، أو في الغرب!...

وحرب الفواصات في البحر بالغة الذروة؛ فما من يوم
يتبلَّج صبحُه، إلا حملت إلينا فيه الصحفُ أنباءً البواخر
الفرقى.

هذا فضلا عن الفيض الزاخر من جنودٍ تابعين لجيشِ
الاحتلال الإنجليزي، تضيق به منافذُ الإسكندرية يَمَنَّة
وَيَسرة. كانوا كمثلِ أرجالِ الجراد المنقضِّ، مختلفة ألوانهم
وصورهم، وإن جمَعهم شارةٌ واحدة، وانضووا تحت علم

واحد... نراهم حين نُصبح وحين مُنسى، يدافعوننا بالمناكب
في الطرق، أنوفهم شوامخ، وعلى سيئاتهم عنجهية واستفزاز،
وفي المخازن التجارية لا يدعون لنا مانشريه حتى الفضالات،
وفي المشارب والمطاعم والأندية العامة يزحموننا ويتبوءون
المقاعد المختارة في صخب وهياج .

لبثنا نحس كأن شيئا ثقيلا جاثما على صدرنا ،
تحتبس له أنفاسنا . نشعر بوطأته، جماعات كنا أو فرادى...
كان هذا «الشيء» يتمثل في مظهرين؛ حماية فرضتها السلطة
المحتلة ، ونفوذ أجنبي طاغٍ تذلل له أعناقنا أيما ذلة .

كان الجو الذي نحيا فيه يَضجُ صاحِباً في مختلف الأرجاء،
يبدأ أننا — نحن المواطنين — كنا على الرغم من الضجة
والصخب نحس الوحشة والإفقار... كنا غرباء في وطننا...
المحتل هو السيد الأمر ، والدخيل هو المطمئن الآنس !...

وما نحن — أهل البلد — إلا منفذون لما يُراد بنا طوعاً أو
على كُره!

إن أردتَ أن تكون مرموقاً بنظرة إكبار وتبجيل
فاجعل على رأسك «قبعة» ؛ وَعَوِّج لسانك بغيرِ المرية !...
مازلتُ أذكرُ — حتى يومى هذا — جملةً كان يلوكها
ماسحُ الأخذية ، ذلك الغلامُ الذى ألفناه يتردد على المشرب
ونحن فيه جلوس . كان يقول ساخِرَ اللهجةٍ مريراً الابتسامة:
أعنى أن أكون « خواجة » مرةً واحدة فى حياتى ،
ثم لا أبالى أن أعيشَ أو أن أموت !...

كنا زُملة من الشباب ، ليس فينا من لم يُجاوزِ العشرين ،
تخيّرنا جالوسنا مشرباً ينظر إلى البحر ، حيالَ الميناء الشرقي ،
فيه تقضى بعض الأصائلِ والأمسيات ...

نجتمع في ركن خاص على الرصيف ، نخوض أشتات
الأحاديث الوطنية في تمحّش وحيوية ، ولكن على حذرٍ
واحتراس ، فالصوت مهوس ، والتعبير فيه إيهام
وغموض ! ...

وعلى الرغم من وطأة الرقابة كان لنا نشاط وطني محدود ،
فكنا نعملُ على مناهضة الاحتلال ، وندعو إلى مقاطعة
البريطانيين ، فنلقَى عنتاً من دُعاة التردد والتخاذل ، ومن

الشجار وَمَنْ إِلَيْهِمْ مَنْ يَضِيقُونَ بِهِذِهِ الْمَقَاطِعَةَ ؛ حِرْصًا عَلَى
الْمَنَافِعِ وَالْأَرْزَاقِ !... يَبِيدُ أَنْ هَذَا لَمْ يَكُنْ يَفْتُ فِي عَضْدِنَا ،
أَوْ يَثْنِينَا عَنْ عَزِيمَتِنَا ، فَانْبَرَيْنَا تُتَابِعُ رِسَالَتَنَا الْوَطَنِيَّةَ ، وَإِنْ
كَانَتْ فِي مَظْهَرِ بَدَائِيٍّ ، غَيْرِ إِيْجَابِيٍّ .

وَكَانَ رَفِيقُنَا « سَيِّدُ الْعَتَرِ » أَكْبَرََنَا سِنًا ، وَأَكْثَرَنَا
تَجْرِبَةً ، فَأَقْنَاهُ عَمِيدًا لَنَا وَرَائِدًا . وَهُوَ مِنْ أُسْرَةٍ مُحَافِظَةٍ
شَدِيدَةِ التَّمَسُّكِ بِأَهْدَابِ الدِّينِ ، مُتَزَوِّجٌ ذُو أَوْطَالٍ ، يُسْتَرْسَلُ
فِي أَحَادِيثِهِ مُتَحَمِّسًا ذَلِيقَ اللِّسَانِ ، وَيُضَمِّنُ كَلَامَهُ آيَاتًا مِنْ
الشَّعْرِ ، وَشَذُورًا مِنْ نَوَابِغِ الْكَلَمِ .

حَقًّا كُنَّا نَعْجَبُ بِفَصَاحَتِهِ وَتَقْدِيرِ مَا يَبْدُو مِنْ حِمَاسَتِهِ ،
وَلَكِنَّا لَمْ نَكُنْ نَعْمِرُهُ التَّفَاتَاتِ ، حِينَ يَسْتَفْرِقُ فِي مَوَاقِفِهِ
وِإِرْشَادَاتِهِ ، فَتَرْمِي بِأَنْظَارِنَا عَرْضَ الْبَحْرِ ، وَقَدْ شَغَلَتْنَا أَفْكَارُ
وَتَأْمَلَاتِ ، وَنَحْنُ مِنَ الظُّلْمَةِ فِي غَمْرَةٍ شَامِلَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ يَنْبِرُ

الشاطئ، إلا بعضُ مصاييحَ تكسو زجاجها زرقة ، درءاً
لأخطار الغواصات ، وما إليها من طلائع البحر .

في ضوء هذه المصاييح الزُّرق القاعة ، كنا نقعد
جلساتنا نستقبل أنسام العشيَّة النديَّة بأنفاس البحر ، نلقى
بآذاننا في إعجاب يشوبه ملل إلى صديقنا « السيد العتر » ،
وهو يوالى نصائحَه وعظائمه ، مردداً :

أصلحوا أنفسكم تصلح لكم دنياكم . دينكم دِعاة حياتكم ؛
حافظوا عليه واستمِدُّوه سواء السبيل .

ثم إذا هو يُنشِد قول الشاعر :
وإذا لم يكن من الموت بُدٌ
فمن العجز أن تموت جباناً

ويُتبعه قوله :

لا يسلُم الشرفُ الرفيعُ من الأذى
حتى يُراقَ على جوانبه الدَّمُ

وينخرط صديقنا « السيد العتر » في إنشاده ، ونحن في
ضجرٍ وركود ، لا يبعث فينا اليقظة والحياة إلا أمرٌ واحد :
ظهورُها .. نعم ، ظهورُها « هي » ...!

كانت تبدو في الطريق أمامَ المشربِ تغمُرُها الأضواءُ
الزُّرْبُ ، فتكسوها غلالةً من غموضٍ وسحرٍ وفتنة ،
وما تكاد تبدو حتى تتقافزَ نحوها عيوننا ، ويُطبقَ على
الخطيبِ المُقَوِّه صمْتٌ .

هيفاء ، فارعةُ العود ، يروعنُ منها ملاءةٌ سوداء ، تجيد
لفها حول جسدِها المشوقِ ، وكمبٌ عالٍ يزيدُ في اتزانِ
الخطوِ ورشاقةِ القَدِّ . ونحن يومئذٍ لم نكنْ نلمحُ النساءِ
الوطنياتِ سافراتِ ، إلا في الثدرة ، كما تبدو صاحبتنا تلك
سافرةَ الوجه ، تشع منها جاذبيةٌ أنثويةٌ طاغية .

تسير مرفوعةً الهامة ؛ لا تتلفتُ ... متهاديةً المشية ؛
كأنها ظيٌّ يحوس متخطراً خلالَ الشجرِ ...!

نُحْصِ ابْتِسَامَةً أُنَيْسَةً يُشْرِقُ بِهَا وَجْهُهَا الصَّبِيحُ...
ابْتِسَامَةً تَحْصُ بِهَا نَفْسَهَا ، فَلَا تَسْخُو بِهَا لِأَحَدٍ .

« هِيَ » مِنْ بَنَاتِ الْهَوَى ؛ طَيْرِ اللَّيْلِ ، وَإِنْ كَانَ
مَظْهَرُهَا لَا يَنْمُ عَنْ تَبَدُّلٍ ، فَلَمْ تَكُنْ تُقْرِطُ فِي التَّبْرِجِ ،
وَلَا تَفْلُو فِي إِظْهَارِ الْمَفَاتِنِ .

كُنَّا نَرَايَهَا بِأَعْيُنِنَا حَتَّى تَبْتَلِمَهَا أَصَاقُ الثَّمَنَةِ عَلَى مَدِّ
الطَّرِيقِ ، وَتَظَلُّ أَبْصَارُنَا تَلَاخُقُ طَيْفَهَا الْغَارِبَ فَتَرَةً مِنْ
الْوَقْتِ ... عِنْدَئِذٍ يَثُوبُ إِلَيْنَا وَعَيْنَا ، وَيَصَافِحُ آذَانَنَا صَوْتُ
رَفِيقِنَا « الْعَمْرُ » ، وَهُوَ يَقُولُ فِي تَوْقَرٍ مُجْتَلَبٍ :

هَذَا نُفْشٌ تَجِبُ مُحَارَبَتُهُ ... قَبْلَ أَنْ تُحَارِبُوا الْإِنْجِلِيزَ
نَظَفُوا بِلَادَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَقَادِرِ ! ...

فَتَصَامُ عَنْهُ الْأَسْمَاعُ كَأَنَّهَا لَمْ يَقُلْ مِنْ شَيْءٍ ، وَعُضَى رُمُقُ
عَرْضِ الْبَحْرِ ، وَطَيْفُ « ذَاتِ الْمَلَأَةِ » يَتَخَايَلُ لِأَعْيُنِنَا عَنْ
يَمِينٍ وَشِمَالٍ ! ...

موعد محدودٌ من اليومِ تخطو فيه على أرضِ تلك البُقعةِ،
وإن لم تكن توالى الظهورَ كلَّ يومٍ . ولشدَّ ما كنتُ ،
وأنا أجالسُ رفاقي ، أرقبُ مقدّمها نافذَ الصبرِ . فاذا فات
موعدُها ، دون أن تلوح لبثت سائر وقتي ، وأنا أحسُّ اللهفةَ
وحسرةَ النفسِ ! ...

كنتُ وحدي في المشرب ذاتَ عشيةٍ، إذ أبطأ الصُّباحُ،
ولبثتُ هنيهةً وعيني راصدةٌ لمن يسلكُ الطريقَ .

ولمجتُ شبحَهَا في الظلمةِ من بعيدٍ، وطفقتُ أرقُبُهَا
وهي تستبين رويداً تحتَ الأضواءِ الزُّرقِ .

وجازتُ بي كنفحة من نسيم رخيٍّ، يحمل بين طياته
أريجَ الزهر . ورمقتني بنظرةٍ ساخنةٍ من عينيها الناعستين ،
وقد استنار وجهُهَا بابتسام أنيس .

وواصلت مسيرَهَا حتى كاد الظلام يُخفيها، وأنا أتبعُهَا
نظراتي، أحاول أن أُمزقَ من حولها غاشيةَ الليل .

وألقيتُ أنهُض، وقد سرتُ في أوصالي نشوةً، واستبدَّ

بي خنين

وقفوتُ أثرَها ...

وأذكرُ كتبها ...

وأحسْتُ بي ... بيد أنها لم تلتفت إليّ، وتابعت مسيرَها

على نحو ما كانت تفعل .

وحاذيتُها ، واسترَوحتُ شذاها .

وطالت بي الحَيِّرة ، لا أدري ما أقول ! ...

وراعني مُخفٍ موفقي ، فلعلتُ نفسي ! ...

وسمعتها تخافُ بقولها :

أين رفاقك الليلة ؟ ...

— تأخروا ...

— ألا تخشى أن يفتقدوك ؟ ...

— لا أبالي .

أزجيتُ أيما كانت فيها المشاعرُ المتضاربة تتناوح
في قلبي ، ولا تفتأُ تتناوح : رغبةٌ عارمة تدفع بي أن ألقاها،
وإرادة صلبة تملئ عليّ أن أقطعها وأن أنساها .

لم ألقِ الرفاق طوال هذه الأيام ، على مَضَضٍ ...
وأخيراً عيل صبرى ، فعدتُ إلى مجلسي بينهم أعتذر عن
انقطاعي عنهم بمكذوب المآذير .

واندفعنا نتحدث ، وكان مدارُ حديثنا حربَ الفواصِلِ
التي شنتها « ألمانيا » على أساطيلِ الحلفاء . وكنا جميعاً نتشهى
أن تنتصر « ألمانيا » انتصاراً حاسماً ، يقضى على بريطانيا وعلى
أذناها من الدولِ المحاربة .

وتكلم « السيد العتر » قائلا :

افهموا أيها الإخوان أن هزيمة الإنجليز لا تغير من
وصعنا، باعتبارنا دولة خاضعة للنفوذ الأجنبي . فإن البريطانيين
ما ييارحون ديارنا حتى تطالعنا ، على أعقابهم ، خوذات
القيصر « وَلِهَلِم » ، ولن يتورع الألمان عن أن يحلوا محل
الفاصبين المرتحلين ؛ فنحن بين غاصب يروح ، وغاصب
ييجيء!

فأجاب « رأفت » ، وقد علا وجهه عبوسُ التشاؤم :
أمكتوب على هذا البلد أن يظل محكوما بغير أهله ،
مغلوبا على أمره ؟... هذا هو البلاء العظيم .

وقال « مأمون » في صوته الأبح البغيص :
حال لا تطاق ... لقد يئسنا من الحياة ... إننا لنود أن
نسلخ من جنسيتنا ، وتتخذ لنا جنسية أخرى ، أعزّ وأكرم .
فثار به « السيد العتر » صائحا :

ألا تنجلُّ من هذا القول ؟...

فأجابه « مأمون » في هيَّجَةٍ وقد اختنق صوته :

أريد أن أعيشَ صرُوعَ الرأس ... أريد أن أحيا حياة
الكرامة . فإذا لم تتوافر لي هذه الكرامةُ والعزة هنا ،
التمسْتُها في وطنٍ غيرِ الوطن .

فقال « السيد العتر » متهدِّجَ الصوت :

أنسيتَ ما قاله « مصطفى كامل » : « لو لم أكن مصرياً
لوددتُ أن أكون مصرياً » ؟...

فتصايحَ « مأمون » :

إني لا أفهم هذه الفلسفة ياسيدى ... لقد شبعنا من
مثل هذا الكلام الأَجَوَفِ .

فقلت وأنا أنظر في عرض الطريق ، أحاول أن أتفقد
شيئاً ضائعاً في الظُّلَّة الزرقاء :

مهما يكن من أمر فإننا نعد اندحار البريطانيين في هذه
الحرب انتصاراً لنا على أية حال ... إنه الخطوة الأولى في
سبيل التحرر .

فقال « مأمون » وهو يرمي ببصره في الفضاء :
نحن اليوم في أسوأ وضع يكون ، فكل تغيير يطرأ
إنما هو خير

وتصيدت عيناى ظلها ، ظلّ ذاتِ الملاءة ينساب في
غَبْشَةِ الليل فلمكنى صمت ، ولعب بقلبي الخُفوق ... ولم
يلبث الرفاقُ أن شملهم سُكون ، فلم ينبس أحدهم بلفظ ...
واصطفّت أنظارنا جميعاً لها ترقبها ، وهى تسير كأنها طيفُ
حُلم رَفَّاف .

وأحسستُ كأنما تحيى بنظرتها ، وتُهدى إلى بَسْمَتها ...
تخصنى بهما دون سواى ... وما إن غيها الطريق حتى سمعت
صديقنا « العتر » يهمهم :

إنكم لتهاجون أعداء الوطن من الأجانب . وأراكم
غافلين عن أعدائنا من المواطنين ، هذه الزمرة الخطيرة التي
تحيا بين ظهرائنا ، آمنة وهي تنفث فينا السموم المردية !...
وسدد إلى النظر ، وكأنه اقتص خفايا شعورى نحوها ،
وقال :

أليس عندك ما تقوله ياسيد « فهم » ؟...

فأجبت وأنا في أخيلة شاردة :

أنت على حق « ياسيد عتر » ...

— أي حق تعنى ؟...

فقلت في هيمنة مسترخية :

ما قلته الساعة !...

— أخلص أنت في قولك هذا ؟...

فتشاءبت تشاؤبة تقطع بينها جوابي :

مخلص جد الإخلاص !...

تخلفتُ عن الندوة يومين...

وفي أُمسيةَ اليوم الثالث ، أُلقيتُ ماثلاً يباب الدار ،
في الحارة المُرِيبة المُعْتَمة ، لا أنا مرتسم خُطّة ، ولا أنا رام
إلى هدَف .

أَحسستُ بأنّي لم يعد لي سلطان على نفسي ، وأن ثمة
قوة خفية غريبة هي التي تتولى تصريف أُمري .

وتناهت إلى سمعي تلك الأصواتُ المَرَبِدّة التي تصاحبها
موسيقى مهوشة ، صادرة من الدار !...

وطالعتني ظلالٌ آدميةٌ تترنّح في الطريق ...
وأخيراً لاحت لعيني ذاتُ الملاءة المَجبوكَة ، والوجه

السافر ...

فلما بلغتُ مكاني عند باب الدار؛ أخذت بذراعي في
صمت ، فمَشَيْتُهَا لَا أَنِيْسُ ...
وارتقينَا الدَرَجَ ...

وكانت الأصواتُ المعْرِيدَةُ ، ذاتُ الموسيقى المَهْوشَةِ ،
تتوضح وتشتد ، كلما أوغلتُ في الصعود ...
وكانت صاحبتى تضغطُ ذراعى ، وتجذِبُنِي نحوها في
رفق ، فأستجيبُ لها في شَغَفٍ .
وَوَالِدِنَا الصعود حتى الطبقة الثالثة ، وهي عُلْيَا طَبَقَاتِ
الدار .

وفتحتُ باب الشُّقَّةِ بفتحٍ معها .
واجتازتُ بي ردهة الشُّقَّةِ ، وأنا في شبه حُلُم ...
هدوء مريح ، ومظهرٌ من النظافة والتنسيق تسكن

إليه النفس ، أما الجلبة الموسيقية وما إليها فلم تعد تبلغ أسماعنا
إلا قليلاً .

وَدخلتُ بى حجرة المَخدع فإذا النور الأزرق ينفشها ،
إذ كانت نوافذها تنظر إلى البحر عَلَى بُعد ، حيث لا تأذن
السلطات بإطلاق الضوء الأبيض ، حِياطةً للمدينة من
العدوان .

وطرحتُ الغايةُ عنها الملاءة فإذا هى فى ثوب شفيف
هَفْهَف ، عاريةُ الصدر والنكبين جميعاً . وقالت فى
ابتسامة مَرِحَة :

هذه الشقة بأسرها لى ، هى مسكنى الخاص ، لا يَشْرَكْنى
فيها أحد ... أتعجبك ؟ ...

— تعجبني ... ولكننى بصاحبتهَا أَشدُّ إعجاباً ! ...

فكرتُ فى الضحك ، وهى تستديرُ فى وقفتهَا ،
ثم واجهتنى دَفْعَةً واحدة .



...وطارحت العاجلة عنها اللقاة ، فإذا هي في يدي خفيف عتيق

وتشأ بكتُ نظراتنا ...

ومثلنا وقتاً صامتين ...

عيناها ...

يا لهما من عينين فريدتين! ...

ليستا من تلك العيون السود ، أو العيون النُجْل ، تلك

التي طالما تغنى بها الشعراء! ...

هما عيناؤ، ضيقتان لم أُمِزْ لهما لوناً ظاهراً ، يبد أنهما

كانتا مُفرطتين في الجاذبيَّة ، يمشى فيهما نَفس وذُبول ،

توحيان بالرؤى والأحلام! ...

وأطلتُ التحديقَ إليهما ، أُعِبُّ من فتلتها ما وسعنى

أن أُعِبْ ، ولا أزداد إلا هيباً نأ ولوعة! ...

وتلتيت وجهها بين راحتيّ ككتنهما ، وهطتُ على

شفتيها أعتصرُهما بين شفتيّ اعتصاراً

دَأْبْتُ عَلَى أَنْ أَتَخَلَّفَ عَنْ مَجْلِسِ الرَّفَقَاءِ ، وَيَشْتَدُّ
بِي التَّخَلُّفُ ...

لقد تولّيتُ بتلك الغانية تولّها لبس ورائحه من مزيد ،
فأقبلت على زيارتها تباعاً ، ولم تكن طاقتي المالية تسمح لي
بما تقتضيه هذه المجالات من مبسوط النفقات ، إلا أنني
دِيرْتُ الأمر على وجوه مبسورة وغير مبسورة ، واتخذتُ
وسائلَ أورتني ما أورتني من صَنَكٍ وَرَهَقٍ . عَلَى أَنْ تَلِكِ
الأوقات الممتعة الشهية التي أقضيها في خِدر تلك الغانية
كانت تُلهيني عن متاعبي جميعاً .

اسمها «نواعم» ، فتاة حلوة الشماثل ، فيها عِزَّةٌ نَفْسٍ ،

متجافيةً عن مَسَلِكِ الفَوَانىِ المحترفاتِ فى الابتذال والاستغلال،
وأجمعُ ظني أنها تَمُتُّ إلى مَنبَتِ أُصَيْلٍ ، ومنشأً كريم .
لم تقع عيني عَلَى مِصرى سِوَاىِ يَطْرُقُ يَتَهَا ذاك ؛ إذْ أنْ ،
رُؤَاةَها هم الضباطُ الإنجليز . ولا أَكْتُمُ أنْ مَرَأى هؤلاء
الضباط كان يملؤنى مَضَضًا . ولكن ماذا فى طَوْقى أنْ أفعل ؟...
وهل يكونُ منى إلا أنْ أَرْضَى بما أَرى وإنْ كرهت ؟...
وأفضيتُ مرةً بذاتِ نفسى إلى « سيد العتر » وناشدته
المعونةَ والنَّصْحَ ، فلم أَلقَ منه واأسفًا ، إلا استهانةً بشعورى
وازدراءً لِجِئى .

وشاعتُ فصِتي بين الرِّفاق ، فراحوا يتنادَّرون بى ، فى
لهجة لذاعة ، وأنا أَعْضُ مرةً ، وأُجارى مرةً ، وأحاولُ مرات
أنْ أصرفَ وجه الحديث .

وليلة استاذنتُ مبادِرا فى الانصرافِ ، فنهض معى .
« سيد العتر » دونَ أنْ أدعُوهُ . وسأيرنى فى الطريق ، آخذاً

بسأعدي .

ومضينا وقتاً صامتين ، ثم سمعته يقول في نبراتٍ
يتكلف فيها التجبُّب :

أين أنت ذاهب يا «فهم» ؟...

فأجبتُه بمثل نبراته :

إلى داري يا أخي !...

— لستَ في قولك على صدق ... إنك ذاهبٌ إلى

دارها .

فتمالَى صوتي بِضِحْكة عابثةٍ أقول :

وماذا في أن أفعل !؟...

فقال في رزاةٍ وجيدٍ :

الطريق التي تسلكها محفوفةٌ بالمخاطر ...

فأجبتُه أحاكى رزائته وجده :

— ٣٣ —

المَخَاطِرُ جزء من حياتنا لا يتجزأ . فليس من الخير
أن نديم التفكير فيها ، مبالغين في الحيطة منها : بل الخيرُ
كلُّ الخير أن نؤثر الجرأة والاعتحام ، لنغتم أطايب المتع ،
لا ندعُها تُفلت منا ، فديةً للحدَر والاحتِراس .

— إنَّ ما تحسَّبه غُنا من أطايبِ المتع ليس إلا الخطيئةَ
الكُبرى .

فوقفتُ خُصيتي رواجته بقولي :

ليس بخطيئة ... بل بخطيئة ...

وأمسكتُ ... ثم خطيتُ ... بقولي :

إنه الحب يا سيدِ حنَّ ... الحبُّ الكبير ... الحب
العظيم ...

— بل الحبُّ الدَّنس يا « فهم » ... فلتكن منه على
حدَر .

- هذا غُلُوٌّ في القول فأعفني منه .
- بل هو نصيحة خالصة ، أبتغى بها وجهَ الله .
- أنا في غُنية عن خالص النصائح ...
- لستُ ادرى كيف يتأتَّى لشابٍّ مثلك ينتمى إلى زمرتنا الطيبة ، أن يسمح لنفسه بعقد الصلة بينه وبين غانية ، تبيع نفسها للإنجليز ، وتعيشُ بما يسخُون به عليها من مال ...
- أين مكانُ الوطنية من قلبك ؟ ...
- فأرسلتُ ضحكةً سقيمةً مفتعلةً وقلت :
- وهل كنتَ ترضى عن علاقة أعقدها بينى وبين غانية لا تتعامل مع الإنجليز ؟ ...
- إنى أحقرُ من يتعاملون مع الإنجليز بهذه الطريقة الخسيسة ... خطئنا أن تقاطعَ الإنجليزَ ، وأن تقاطعَ أيضاً أذئابَ الإنجليز ...
- أرجو منك أن تكف عن هذا الشطَط . دعنى

وشأني !...!

وتواصلتُ خُطانا على الطريق ، لا تتناقلُ الحديث ،
وقد استبدَّ بنفسى كدروخزى . وكنت وأنا أثقل قدمى
أشعرُ كأن حذاءى قد أثقله رمل ، فأنا أدفع به فى جهد .

ووقفتُ بنتةً وقلتُ :

أَسعدَ اللهَ مَساءُك يا « سيد عتر » .

— أين أنت ذاهبة ؟...!

— إلى حيثُ أشاء !...!

— أنت وماتَهوى . أسأل الله لك الهدايةَ على

كل حال ...

لُذْتُ بِدَارِي ...

لقد عراني سُخْطٌ عَلَى نَفْسِي ، وَعَلَى تِلْكَ الْفَانِيَةِ ...

إِنَّ مَا تَحْدُثُ بِهِ « سِيدَ الْعَتَرِ » أَثَارَ مَا كَانَ حَيْسًا فِي
سِرِّيَّتِي : عِلَاقَتَهَا بِالْإِنْجِلِيزِ ... شَدَّ مَا تَقَمْتُ مِنْهَا تِهَالِكَهَا
عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ ...

وَلَكِنِّي عَدْتُ أَنْسَاءَ : أَتَكُونُ تَقَمْتُ مِنْ تِهَالِكِهَا
عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْجِلِيزُ أَمْ لِأَنَّهُمْ عُشَاقُهَا ، يَنَافِسُونَنِي فِيهَا ،
وَيَزَاحِمُونَنِي عَلَيْهَا ؟ ...

وَاحْتَبَسْتُ أَيَّامًا فِي الدَّارِ لِأَبْرَحَ ، وَأَنَا صَرِيحُ الْهَوَاجِسِ
وَالشَّجَوْنِ ، أَغَالِبُ وَازِعِي وَتَفَالُبُنِي ... وَانْتَهَيْتُ إِلَى قَرَارِ

حاسم : أن أزورها ، لأتحدثَ إليها حديثاً صريحاً في هذا الشأن ، وأُسدي إليها نصحاً بالكفِّ عما تزاوَلُهُ من عمل وضيع !....

واشدَّ بي التحشُّس ، وأنا في الطريقِ إليها ، وسرني أني مقبل على عملٍ محمّد : إقناذِ إنسانِهِ ضالّةً من البشر ، وهدايتها إلى الطريق القويم .

فما إن لقيتها حتى انعقدَ لساني ، لا ينطقُ بشيءٍ مما جئتُ من أجله ...

وكان اللقاء حارّاً تبخر فيه كل ما في رأسي من نُصح وإرشاد ، فلم أستطع أمام خَدَرِ عينيها ، وبين دَفءِ ذراعيها أن أُلْفِظَ من قول ...

وفما كنا جالسين على المتكأ ، وأيدينا متشابكة ، سمعتها تقول لي :

لستُ أدري كيف أحيتُك قبلَ التعارف ، على حين

أني لم أركَ إلا في الضوء الأزرق المُعتم ...
فأجبتُها وعيناي موصولتان بعينها :
ذلك ما لا أدريه أنا أيضا ... لقد همتُ بكِ حبا في
ضوء المصابيح الزرق !...
فهممتُ :

إذا كيف تخلق هذا الحبُّ في الظلام ؟... كيف نما
وترعرع ، دون أن يرى كَلَاناً صاحبه رؤيةً واضحةً ؟...
— ثمة عواملٌ خفيةٌ ليس مصدرها الإبصار ، هي التي
تدفع بالمرء منا إلى الأُنس بصاحبه !...

فقلت وقد لاح على وجهها فُضول :
أيةَ عواملٍ تعني ؟...

فألفيتُ نفسي أقول دون تروية :
المغناطيسية الروحية مثلا ...

فأُتسعتُ حدقَتَها، وهى تنظرُ إلىَّ فى إكبارٍ وإعجابٍ ،
وقالت :

وماهى المغناطيسية الروحية ؟...

فأُحسستُ زَهْوَاً يُخالِجُنِي ، وأُطنبتُ فى القول
متحمساً ، أُرِضْتُ الكلماتِ رِضاً :

المغناطيسية الروحية ، هى مصدرُ حياتنا ... جوهرُ
نفوسنا ... خلاصةُ أرواحنا ...

إنها تعمل بوخى خفى لا يعلمه أحد... هذه المغناطيسية
ليس لها عيونٌ ترى ، ولكن لها بصيرةٌ تُحِسُّ ، وإن
إحساسها لا يخطئُ أبداً... حسب هذه المغناطيسية —عندى
وعندك— أن تتواصلَ على البُعد ، فما هى إلا أن يكون
بينها تَجاذبٌ وتَأَلُفٌ وانسجامٌ ، فينجمُ على الأثر ذلك
الحبُّ العنيف !...

فَقالتْ فى لهجَةٍ لا تُخلو من سذاجة :

إذن صحيح ما يقوله الناس من أن الحب أعمى ؟...
— ربما كان أعمى البصر، ولكنه ليس أعمى البصيرة.
فانسرحتُ تفكر لحظةً ، ثم استأنفتُ تقول ، وقد
شدتُ على يدي :

أنتَ واسعُ العلم ، وكلامك مفيد... أنا في شوق إلى
سماع المزيد من حديثك ، وإعجابي بك يقوى ويمظم...
والتقينا في قبلةٍ مديدة حرى !...

وَيَمُتُ دَارَهَا فِي إِحْدَى الْأُمْسِيَّاتِ ، فَصَادَفَنِي ضَابِطُ
 إِنْجِلِيزِي ، خَارِجٌ مِنَ الشُّقَّةِ الَّتِي تَسْكُنُهَا صَاحِبَتِي .
 وَتَرَاشَقْنَا بِنَظَرَاتٍ فِيهَا تَشَامُخٌ وَاسْتِعْزَاءٌ .
 وَطَرَقَتُ الشُّقَّةَ ، وَأَنَا مُتَجَهِّمٌ الْوَجْهَ عُمُوسٌ ، فَلَمَّا
 نَقَيْتَنِي قَالَتْ :
 كَفَى اللَّهُ الشَّرَّ ! ... مَاذَا بَكَ ؟ ... أَأَسَاءُ إِلَيْكَ أَحَدٌ ؟ ...
 فَأَجَبْتُهَا بِلَا تَرُدُّدٍ :
 يُؤَلِّمُنِي أَنْ أَرَى هَؤُلَاءِ الْإِنْجِلِيزَةَ عِنْدَكَ ... لَا أَطِيقُ
 ذَلِكَ ! ...

فَقَالَتْ فِي ابْتِسَامَةٍ تَطْرُقُ ، وَهِيَ تَدَاعِبُ دَقْقِي :
 — ٤٢ —

لماذا؟...

— لأنني أكرههم!...

— وتريدني على أن أكرههم مثلك؟...

— جذا.

فقلت وقد زوت عيني عني :

إهم يحسنون معاملتي ... لم ألق منهم ما يسوء :

فبرق بصري حقاً ، وقلت :

ألا تحسن لهذا البلد حقاً عليك؟ ... أين وطنيتك؟...

فضت ثعابت نوطاً مدلى على صدرها وأجابت :

الوطنية يا صاحبي لا تمنحني لقمة العيش!...

— تفضلين أن تنالي لقمة العيش من طريق خيانة

الوطن؟...

فجاهتني بقولها :

إذا اعتبرت كل امرئ يعامل الإنجليز خائناً فستجد

كثيرا من أبناء الوطن ينطبقُ عليهم وصفُ الخيانة ، وعلى
رأسهم السادة الحُكَّام!...

— كل من يعاون الإنجليز خائن ، وإن ذلكِ نفرَ من
السادة الحُكَّام لفي مقدِّمة أولئك الخَوَنَةِ الأُنذال .

فأرسلتُ ضحكةً شوَّهاءَ وهي تقول :

أَحْمَدُ اللهَ على أَنِّي لستُ وحدي فيما تسميه خيانةُ
الوطن ، بل يَشْرَكُنِي كثير . لن تستطيعوا أَن تَشْنُقُوا
هذا العددَ الجَمَّ من أَهل البلد.

فتصايحتُ قائلاً :

كل خائن جدير أَن يُشْنَقَ ... كثر العددُ أو قل ...
لا يرحمُ الوطنَ من يخونُه ...

فدانتُ مني هيئَةُ الخطي ، وقالت في مُلاينة وإِغراء ،
وقد أَمسكت يدي تداعبُها :

أَتَسْتَطِيعُ هَذِهِ الْبَلَدَةَ أَنْ تَمْسَنِي بِسَوْءٍ؟ ...

فَقُلْتُ صُلْبَ الْمُحْيَا :

نعم تستطيع ... تستطيع !...

— إذن حاولِ الآنَ ... إني أُمِدُّ إِلَيْكَ رَقَبَتِي !...

ورفعتُ يَدِي إِلَى عُنُقِهَا ، فَجَذَبْتُ يَدِي مِنْهَا ، نَائِيَا
عنها ، وَأَنَا أُرَدِّدُ :

دَعِينِي ... دَعِينِي ...

فَلَا حَقَّتَنِي ، وَمِثَلْتُ أُمَامِي تَمَلُّ عَيْنَهَا مِنِّي ، وَقَالَتْ فِي
صَوْتٍ سَاحِرٍ :

لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُتَلَحَّقَ بِي ضَرَرًا أَيْ ضَرَرٌ ... أَنَا
أَهْوَنُ عَلَيْكَ !...

وَقَارَبْتُ وَجْهَهَا مِنْ وَجْهِهِ ، فَأَحْسَسْتُ بِوَقْدَةٍ
مِشَاعِرَهَا تُلْهَبُ مُحْيَايَ ، وَوَاصَلْتُ كَلَامَهَا تَقُولُ :

أنتَ تحبني ، وأنا أحبك . مالنا والسياسة ... فنتبها
لأصحابها ولننعم بمباهج الحب !...
وأخذت برأسي بين يديها ، وامهنت على وجهي
تقبلا !...

وانتبتذت بي رُكنا من الحُجرة، وجلسنا على التَّكَا
متجاورين، وأراحتُ رأسها على كتفي في تدلُّل، ثم قالتُ
في صوتٍ لينٍ المكاسر يُنبئ عن ألمٍ:

أريدُ أن أحيا أنا وأسرتي في بَحْبُوحَةٍ ورَعَدٍ .

فَطَلَمْتُ إِلَيْهَا، قَوْلًا :

أُسْرَتُكَ؟! ...

— أَظَلَنْتَنِي يَا « فَهِيمُ » ضَائِعَةً ، لَا أُسْرَةَ لِي؟! ...

أنا بنتُ ناسٍ! ...

— من أُسْرَتِكَ؟! ...

— أُسْرَتِي هِيَ ... هِيَ أَبِي ، رَجُلٌ طَاعِنٌ فِي السِّنِّ .

— أبوكِ!؟ ...

— رجلٌ مريضٌ ، في حاجةٍ ماسةٍ إلى معونتي
فربتُ يديها مترقِّقا ، وقلتُ :

ألا تستطيعين أن تكسبي عيشك من غيرِ هذا
الطريقِ!؟ ...

فأجابني ، ورأسها ما يزال على كتفي :

بدأتُ حياتي بعملٍ شريفٍ ، ولكنه أفضى بي رويدا
إلى ماترى ... إنكم - معشر الرجال - تعيبون علينا ما نتردّي
فيه ، والميبُ كُلُّه منكم ، فأنتم الذين تدفمون بنا إلى
الخطيئة دفعا! ...

فغنمْتُ. أقول :

ليس الرجالُ كلُّهم سواء! ...:

فواصلت كلامها ، وكأنها في غيبوبة تحلم :

كلّهم سواء! ... لم أجذ من أحد يتغنى بمؤنه وجه
الخير ... لكل منهم أرب! ...

— هنالك « شخص » يرغب في عونك ، وعزمه
صادق ، ونيتّه بضاء .

فرفعت رأسها عن كتفي ، وواجهتني تقول :
وكيف تريد أن تعينني؟ ...

— أبحث لك عن عمل شريف .

فأرسلت ضحكة ساخرة ، وقالت :

العمل الشريف لا يُدر على من الكسب ما يكفي
وأسرتني .

— من الأعمال الشريفة ما يُتيح لك أنتِ وأبيكِ
حياة طيبة .

فرمقتني بنظرة حادة ، وهي تقول :

ليس هناك من عمل شريف إلا كان فيه رجالٌ
يطاردوننى ، فيدفعوننى إلى هذا الطريق ، عوداً على بدءٍ !...
— والزواج ؟...

— أين من يرتضى زوجة ؟... امتحن نفسك أنتَ
وانظر هل تقبل أن تزوج مثلى ؟... أجبنى صريحَ القول !...
فأجبتُ متردداً :

لا يبدو أن فى الأمر استحالة .

— أنا فى حاجة إلى من ينفق عَلىَّ ، ويُدِّه سخيَّة ...
لقد أُنِيتُ حياةَ التَّعَمُّمِ والرفاهية ، وليس من سبيلٍ إلى أن
استبدل بها غيرها ...

وزان عليها الصمتُ لحظاتٍ ، ثم استأنفت نقول :
هَبْكَ قَبْلَتَنى زوجةً لك فهل فى مقدورك أن تهبنى
الحياةَ الرَّغيدةَ التى أنشدها ؟...

— أنا مازلت طالبا فى المدرسة العليا ، ومواردى

محدودة ، ولكننى أعدك بأن أبذل قصارى جهدى ...
ووجدتها تقطع جبلَ الحُاورَة فى هذا الموضوع
بقولها :

دعنا من البحثِ والتدبير ، ولنفعلْ بنا الأقدارُ ما تريد .
ولاحتْ عَلَى حياها أطيافُ حسرة ، وَنَدَّتْ مَها تَهْدَةُ
شَجَنِ ، فَأَفِيئْتُ أَنْطَلِقُ فى القَوْلِ مَهتاجِ الصوتِ :
أَسْتَطِيعُ أَنْ أُنِيلَكَ كُلَّ ما تَطْلُبِينَ ... خَبِّرِينِي عَمَّا أَنْتِ
فى حاجةٍ إِلَيْهِ ... سَأَعْمَلُ المستحيلَ فى سبيلِ إرضائكِ ...
لَنْ أُحْجِمَ عَنِ السَّرْقَةِ بَلْ عَنِ القَتْلِ ؛ لَأَمْنَحَكَ ما تشتهين
الحصولَ عَلَيْهِ .

فاحتضنتنى ، وهى تغمزُنِي بِقُبَلاتِها الحائِية ، تقولُ :
يا حبيبى الغالى ... لَنْ أَرْضَى لَكَ أَنْ تَكُونَ سارقا ،
أو أَنْ تَكُونَ قاتلا ، مِنْ أَجْلِ حَبْكِ إِيَّاي ... لَنْ أُورِطَكَ

في شر وأذى ابتغاء مرضاتي ... لا ... لا ... يا أعزَّ شخصٍ
عندي. عش لي سليماً مُعافٍ ؛ . أنتَ معاً حبيبين لا يُفَرِّقُ
بينهما الدهر !! ...

مثلتُ تنظرُ إلىَّ في تعبدٍ ، واستأنفتُ تقول :

لنعمُ بصفوِ سَاعَاتِنَا الحَاضِرَةِ ... ولتدُمُ عِلَاقَتُنَا كما
 هي ... إني أُحبُّك يا «فهم»... ألا تصدِّقُ أني أُحبُّك ؟...
 أستطيعُ أن أُقيمَ الدليلَ عَلَى هذا الحبِّ ... لن أقبلَ منك
 أجرًا عَلَى زيارَتِكَ ... ستكونُ خِليَ المُفَضَّل ...
 « رفيقِي » ... أسمعُ ؟ ... ستكونُ «رفيقي» !...

فقلتُ وأنا دَهِشُ حائرُ

رفيقيك ؟!...

— سأعطيكُ مفتاحَ الشُّقَّةِ ليتسنى لك أن تحضُرَ متى
 شئتُ وأن تقضىَ معي من الوقت ما طابَ لك أن تفعلَ .

لن تكونَ عليكِ في ذلك كُلفة ... ولكنني لن أعفِكَ
من بعض الهدايا ، مُجَارةً للُعرف : بن ، سكر ، صابون...
إلى نحو ذلك من ألوانِ المِثونة !...

لا حاجةَ بي إلى شيء من هذا كلّه ... ولكن يجب
أن نحافظَ على المظاهر . من واجباتِ « الرقيق » أن يكفُلَ
لرفيقته مِثونة البيت . هذا ما يجب أن يعلمه الناس ولاسيما
السيدة مالكة الدار . وستقدمُ أنتَ إلى هذه السيدة أجرة
السكن بيدك ، غير أنني سأعطيك الأجرة لتؤدّيها إليها ؛
كأنها من مالك أنت خاصة .

ووثبتَ إلى خِزانة في الحجرة ففتحتها ، وتناولتُ منها
تقوداً رجعتُ بها إلى ، فدمستُها في كفي تقول : .

نحن الآن في فِوَاتحِ الشهر ... اذهب بالأجرة إليها...
إنها تقيم في الدَّور الأرضي ... ستكون رفيقي منذُ اليوم ...
مارأيك ؟...

وأبقيتُ النقودَ في يدي أرمُقُها في ذُهلٍ ، وسمتُ
صاحبتي تُواصلُ القولَ :
كل ما أرجوه منك نظيرَ ذلك أن تحترمَ مواعيدَ
ضيوفي !...!

وانتظمتني رِعدة عارمة ، قَلتُ محدّدَ الصوتِ :
ضيوفُك الإنجليز !؟...
— أمرٌ طبعي !... .
— حقا ، طبعي جداً !...
وأرسلتُ ضِحكةً خشنَةً بِشَعَةٍ .
واقتربتُ مني محاولاً أن تهدّئ من نائرتي وهي
تقول :

اقبل ما عرضته عليك ... أرجوك ... أقسمت عليك
بحق ما يبتغى من حب ... سنحيا سعيدين ، لا ينغصُ عيشنا
شيء .

وأحسستُ كأنَّ النقودَ تَلْسَعُ يَدِي ، فقذفتُ بها وأنا
أقولُ متحسِّرٍ جَ الصوتِ ، محتقِنَ العينِ :
إني أرفضُ ما تعرِّضينِ عليَّ ، شكراً لما أبديتِ لي
من شعور رقيق !...

وانطلقتُ كالإعصار ، أصفقُ البابَ خلفي .
خرجتُ إلي رصيف البحر أستندى بهواء الرطب...
فيم هذا الهوائُ ؟... وختامُ أصبرُ عليه ؟...
كيف أَرْضَى لِنَفْسِي ذلكَ المسلكَ ، وفيه ما فيه من
ضعة وخسة وعار ...
هيهاتَ ، هيهات ...

لزامٌ أن أضعَ حداً لذلك العَبَثِ البغيض ...
وتابعتُ خُطَايَ عَلَى الرصيفِ ، محتاجاً أَرْفُ ، والأفكار
تزعجُنِي من كل صوب ، وهواء البحر من حولي يَلطِّفُ من

حدة تلك الأفكار ، فما هي إلا أن أحسستُ برد الطمأنينة
والارتياح .

وَأَلْفَيْتُنِي أَعَاهِدُ نَفْسِي عَلَى أَلَّا تَطَّأُ قَدَمِي دَارَهَا بَعْدَ
اليوم .

وذهبتُ أطلبُ مجلسُ الرفاق في المَشْرَبِ ، ووجدتُني
أُستَرسَلُ معهم في التَّنَادُرِ ، وَأَنَا أَرْفَعُ عَقِيرَتِي بِالضَّحْكَ
وَأُوَالِي التَّهْزِيجَ وَالصَّخَبَ ، وَالرَّفَاقُ مِنْ أَمْرِي فِي عَجَبٍ
عَاجِبٍ .

وما إنِ اخْتَوْتُنِي دَارِي حَتَّى تَهَاوَيْتُ عَلَى الْمَتَّكَ ،
أَبْتَسِلُ لِنُوبَةٍ مِنْ نَشِيجٍ وَاتَّحَابٍ ، وَعَيْنَايَ تَسِحَّانُ
الدموع ! ...

دارت بي الأيام ...

وبررت بوعدى ، فلم تطأ قدماى تلك الشقة المعهودة .
وأدليتُ إلى «سيد العتر» بموجزٍ ما كان ، وأنهيتُ إليه
ما بنيتُ عليه العزم من مقاطعة تلك « الشقة » إلى الأبد ،
فشددتُ على يدي مهنتا إياى بصدق الوطنية ، وسدادِ الرأى ،
واستقامة السلوك !...

ورغبتُ إليه فى أن يتخيرَ لنا مقرَّ اجتماع آخرَ غيرَ
ذلك المشرب الذي يواجهه الرصيف . حتى أتجنب أن أرى
«صاحبة الأمس» ، فوعدتنى بإنجاز ما رَغبتُ إليه فيه ، وكان له
عند الرفاقِ رأى مسموع ، فلم يصعبُ عليه أن يُقنعهم بهجرِ

المشرب ، وما أوشك أن انتقلنا إلى ميدانِ المنشيءِ في متدّى
صغيرٍ ، واحتلّلنا منه ركنا اتخذناه لنا مثابةً ، واستأنفنا
هنالك جلّساتنا ، تحدثُ في شأنِ مقاطعةِ البريطانيين ،
ورسُمِ الخططِ ، ونُدبِرُ وسائلَ التنفيذِ .

وواصل « سيدِ العتر » نصائحَه الخطّائيةَ ، ذواتِ
الحِكمِ والأمثالِ ، ترصّعُها آياتُ الشعرِ الحماسيّ ... فكنا
نُصْنِى إليه على مَضَضٍ ، ونحنُ نرمي بأبصارنا عُرْضَ
الطريقِ ، نحاولُ عبثاً أن تصيّدَ عيوننا ذلك الطيفَ الساحرَ
تظلمُّه زُرْقَةُ المصاييحِ .

وأحسننا الوحشةَ حقّاً ، فرآنا علينا خمول .

وتصايحَ مرةً صلحنا « رأفت » :

هل كتبَ علينا أن تقضىَ حياتنا في هذا المكانِ
القابضِ الكئيبِ ، مُحَرِّمينَ نسيمَ الشاطئِ ؟ ... دعونا
نعاودُ مجلسنا في المشربِ على رصيفِ البحرِ .

وَاتَجَمَّتِ الْأَنْظَارُ نَحْوِي عَلَى الْفَوْرِ ، فَقُلْتُ وَأَنَا أَتَصْنَعُ
الْهُدُوءَ :

مَنْ رَغِبَ فِي الْعُودَةِ إِلَى مَشْرَبِ الْبَحْرِ فَلْيَفْعَلْ ، لَيْسَ
لِي أَنْ أُرَدَّ أَحَدًا عَمَّا يَرِيدُ ... كُلُّ وَمَا يَهْوَى ... أَمَا أَنَا فَلَنْ
أَعُودَ إِلَى ذَلِكَ الْمَشْرَبِ أَبَدًا .
فَعَلَّقَ «رَأَفْتُ» بِقَوْلِهِ :

إِنَّكَ لِأَصْغَفُ مَنْ أَنْ تَصَاوِلَ نَفْسَكَ حِيَالَ هَذِهِ
«الْعَائِيَةِ»... إِنَّكَ تَهَيَّبُ رُؤُوسَهَا وَحَقَّ السَّمَاءُ... يَا لِلشَّجَاعَةِ !...
فَقُلْتُ فِي ضَيْقٍ :

أَحَاوِلُ أَنْ أَحْيِيَ عَيْنِي مِنْ مَقَاذِيرِ الطَّرِيقِ .

فَعَقِبَ « سِيدُ الْعَتَرِ » قَائِلًا :

لَا جُنَاحَ عَلَى امْرِئٍ يَرِيدُ أَنْ يَبْقَى نَفْسَهُ مَوَاطِنَ
الْفِرَاقِ ، وَتَنَكَّرَ عَنْ مَزَالِقِ الشَّهَوَاتِ !... إِنْ أَنْصَرْتُكَ

يا « فهم » ، وأطلبُ إلي الرفاق أن يناصِرُوكَ معي .
ونجح « سيد العتر » في دعوتِه ، فظلَّ متدَي المنشِية
هو ملتقانا في الأماسي .
ولشدَّ ما أسِفْتُ ... لِمَا اتَّهَيْنَا إليه من قرار ! ...

كانت الأيامُ في تتابعٍ تزيّدني تولّها بها وحيناً إليها...
تلك الغاية الساحرة .

ويوما ، وأنا أسيرُ متسكّماً في ساحة « المنشية » ،
أتسلّى بالنظر إلى وجهات المخازن التجارية ، لمحتُ « طيفها »
على قُربٍ ...

واختلج كياني كله ...

نعم « هي » ...

رأيتها تدخل متجراً مشهوراً من متاجر الثياب ...
ولمحتُ طفلاً ، يتخطّى الثامنة ، آخذاً يدها .
واشدَّ وجيبُ قلبي ...



ولسوقت مرصعة أحمره ، قطت بها على الطريق .

وَأَلْفَيْتُنِي عَلَى الْفَوْرِ أَقْفُوْ خُطَاَهَا فِي مُسَارَقَةٍ وَتَلَصُّصٍ .
وَرَاعَنِي مَظْهَرُهَا الْمُحْتَشِمَ ، لَا طِلَاءَ وَلَا زُؤَاقَ ،
وَلَا مَلَاءَةَ مَجْبُوْكَةَ تَكْشِفُ عَنْ مِفَاتِيْنِ الْجَسَدِ .

أَنَّهُ تَبْدُو سَافِرَةً ، فِي حُلَّةٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ نِسْوِيَّةٍ ، يَدُوْ
شَبْهَهَا فِيهَا أَقْرَبَ مَا تَكُوْنُ رَبَّةٌ يَبْتَ إِيطَالِيَّةٌ صَمِيْمَةٌ .

رَأَيْتُهَا بِالْفَنَةِ الْإِهْتِمَامَ بِالْعُلَامِ الَّذِي يَصَاحِبُهَا ، تُؤَلِيهِ
الْمَزِيْدَ مِنَ التَّفَقُّدِ وَالتَّحَنُّنِ ، وَقَدْ تَخَيَّرَتْ لَهُ مَجْمُوْعَةً مِنْ
طَرَائِفِ الْأَثْوَابِ تَدُلُّ عَلَى تَأَثُّقٍ وَرَفَاقَةٍ ذَوْقِ .

وَبَارَحَتْ الْمَتَجَرَ تَحْمِلُ صُرَّةً كَبِيْرَةً .

وَاسْتَوْقَفَتْ مُرَكَبَةً أَجْرَةً عَنْ كَشَبِ مِنَ الْمَتَجَرِ فَمَضَتْ
بِهَا عَلَى الطَّرِيْقِ .

وَوَجَدْتُنِي أَقْفَزَ إِلَى مُرَكَبَةٍ أُخْرَى فَاتَّبَعْتُهَا بِهَا . وَلَمَّا
بَلَّغْنَا « مِيْدَانَ مَحْطَةِ مِصْرَ » وَقَفَتْ مُرَكَبَتُهَا أَمَامَ مَبْنَى حَسَنِ

المظهر قائم على قمة الشارع الكبير .

ومدت يدها إلى السائق بأجرته فأخذها وانصرف .

وتقدم منها صبيٌ بالغُ الشمرة ، كان يباب المبنى ،
فجاءه وأحمل الصرة عنها ، ومالبت أن وضعها تحت إبطه
البسرى ، وأخذ الغلامُ بيده اليمنى واشتبك معه في ثرثرةٍ
لاغية .

والفتشهم جميعاً يختفون داخل المبنى .

ومكثت قليلاً أحومُ في رفقٍ واحتراس ، وعيني
راصدةٌ .

وعاد الصبي البالغ الشمرة إلى الباب ، واقتمدَ عتبة .

وتدأبتُ منه أحييه في ملاطفةٍ وملقٍ .

ودار بيني وبينه حديثٌ ودُّيٌّ يرجع الفضلُ فيه إلى
منحةٍ سخيةٍ ، عاجلته بها .

علمتُ من الصبيِّ اللينِ العريكةِ أنه ابنُ البوابِ ،
وأن الدارَ لها من الطبقاتِ ثلاث ، ومن الشَّقَقِ ست . وأن
« الغانية » اسمها « بهية » تسكن الشُّقَّةَ اليمني من الطبقةِ
الثانية ، وهي تحيا مع أبيها ، أما الغلام الذي شاهدته معها
الساعة فهو ولدها .

لم أطلَ وَقَفتي مع الصبي ، حتى لا أثيرَ توجُّسه ، وقنعتُ
بما راج لي من أنباء .

ومضيتُ حتى بلغتُ قفَّةَ الشارع ، أتأهبُّ للعودِ ، وإذا
أنا أُلَمِّحُ حانوتًا لبيعِ لفائفِ التبغِ والحلوى يلوحُ فيه رجلٌ
ممن أعرف ... كان منذُ قليلٍ صاحبَ مثلِ هذا الحانوتِ
في الحى الذي اسكنُ فيه .

أقبلتُ عليه أنافله التحية ، فهشَّ لي وبشَّ ، وأقسمَ أن
أجلسَ ، وأتخذَ مكانَه بجوارى يطارحنى الحديثَ ، فجاء
ذكرُ الحى الذي يعمل فيه الآن ، فالتستُ هذه الفرصةَ

للحديث عن التبنّي الذي تقطنه « بهية » وإذا هو يتحدثُ
عن سكانِ المبنى وعلى رأسهم تلك السيدةُ الفاضلةُ ، ذاتُ
السُّمعةِ الكريمةِ والحياةِ الراحيةِ ، ، والأصلِ الطيّبِ .
هكذا عرفتُ من شأنِ « بهية » ، بل مارا عني .

لقد استبانَ لي أن هذه « الغانية » أو على الأصح هذه
« السيدة » لها حياتان ، تختلفُ كل منهما عن الأخرى كلَّ
اختلاف ... هنالك غيرَ بعيد من الميناء الشرقى في تلك الحارة
المظلمة المريبة تحيا حياة بناتِ الهوى ، وتُعرفُ باسم « نواعم » .
وهنا في « ميدان المحطة » تعرف باسم الست « بهية » وتحيا
حياة شريفة في يسرٍ ورخاء ، مع أبٍ مهتدٍ لا يبرح الدَّارَ
وابنٍ يتقلَّبُ في أعطافِ النُّعمة ، وتتوافر له أسبابُ
الإسعاد .

ومثلتُ في ركن الشارع ، وقد أَسندتُ ظهري إلى
جدار إحدى الدور ، أحاول أن أُلِمَّ شَعَتَ أفسكاري ،

وأستخلص صورة واضحة لهذه «الغانية الفاضلة» .

ورأيتني بفتة أقتحمُ المبنى ...

وماهى إلا أن اقتادتنى خُطَاىَ إلى شقتها ...

لم يكن فى ذهنى خطة مرسومة لهذه الزيارة ، ولم أترو
فيما أفتّح به القول .

كان الدافعُ مفاحشا ، قويا ، يستبدُّ بى أيما استبداد .

وضغطتُ زِرَّ الجرس ...

ومضتُ لحظات ...

ثم طرق سمى وقعُ خطأها ، تلك الخطى التى ألفتُ
صوتها ، فلم تُعدْ تخطئها أذناى ...

وعنّ لى أن أهرب ...

ولكنّ الباب انفتح قبل أن أفعل ، وبدتُ «هى»

على عتبة ...

وما إن طالعتني حيالها حتى فرّ لونها ، وجحظت
عينها ...

وظلّت هنيئةً تحدّ فيّ النظر ؛ كأنما هي غير مصدقة
ما ترى ...

ولم تلبث أن انقلبت سحتّها ، فتقلّصت عضلات
وجهها ، واختلجت شفتاها دون كلام ، ثم انطلقت تقول في
صوت يشبه الفحيح ، تحاول أن تُخافِت به ، خشية أن
يلغّ آذان الجيران :

إياك أن تدخل ... أترك الدار في الحال ... لماذا تتجسّس
علَيّ ؟ ... لو لمحتك هنا ثانية لقتلتك ... أقسمت لأقتلّك
إن فعلت ... انصرف ...

وكانت معارف وجهها تشني بصدق ما تُهدّد به ...
وقد استحالت « الغانية » الأنيسة في لحظة واحدة ، « نمرّة »
ضارية .

وردتِ البابَ في وجهي ، فارتفعَ لَدَّه صوتٌ شديد.
ووجدتُني أهبطُ الدَرَجَ كأنَّني صخرةٌ تتدهورُ على سفحِ
جبلٍ .

ووسعتني الطريقُ ، عاثرَ الخطو ، كسيرِ الفؤاد ،
يملؤني أسف ، ويملِّكني خزيٌ ...!

أيام عصبية ترادفت علىَّ ، وأنا مبَلَّلُ الخاطر بما مرَّ بي
من شُؤن .

وظفقتُ أوازن بين هاتين الشخصيتين المعجيتين :
شخصية «نواعم» ، وشخصية «بهية» . أئمةٌ مَنْ يستطيع
أن يجمع بين هاتين الحياتين المتناقضتين في إهابٍ واحدٍ...
أهنأك من يقدر على أن يُلَامَ ، في وَلِجَةِ نفسه ، بين تلك
الصفات المتعارضة ، من فضيلةٍ ورذيلةٍ ، من طهرٍ ودنسٍ ،
من تحفظٍ وانطلاقٍ .

وامتلأت نفسي بالرغبة في أن أتصلَ بها .

لا بدَّ أن ألقاها... لا بدَّ أن أتحدثَ إليها... لا بدَّ أن

أُسْتَبِينَ مِنْهَا هَذِهِ الطَّلَاسِمَ وَالْأَلْفَازَ .
وَأَحْسَسْتُ نُحُوءَ الشَّبَابِ ، وَشَهَامَةَ الرُّجُولَةِ ، تَتَقَدُّ
بَيْنَ جَنِيِّ .

أَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْمَلَ شَيْئًا مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْإِنْسَانَةِ
الْحَيَّرَى ؟ ...

أَلَيْسَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَصْرِفَهَا عَمَّا هِيَ فِيهِ مِنْ تَنَاقُضٍ
وَاضْطِرَابٍ ، فَأُنْجِيَهَا مِنْ حَيَاةِ الْمَجَانَةِ وَالْمَهَانَةِ وَالشُّرُودِ ،
وَأُقْصِرَهَا عَلَى حَيَاةِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالتَّصَوُّنِ وَالِإِحْتِشَامِ ؟ ...

لَوْ نَجَحْتُ فِي مَسْعَايَ لَكُنْتُ بَطْلًا هَامِمًا ، وَلَحَقْتُ
بِأَنْ أَزْهَوْ بِأَكْبَرِ انْتِصَارٍ ، أُصِيبُهُ فِي دُنْيَايَ .

وَقَرَّ عَزَمِي عَلَى أَنْ أَزُورَهَا فِي شِقَّتِهَا الْخَاصَةِ ، شِقَّةِ
الْغَانِيَةِ «نَوَاعِمِ» .

وَمَا أَسْرَعُ أَنْ كُنْتُ بِالْبَابِ أَضْغَطُ زُرَّ الْجَرَمِ .

فلما لمحتني هَمَّتُ أَنْ تدفعَ البابَ في وجهي ، بيدَ أني
بادرتُ بالمرور منه ، ودخلتُ الرِّذْهَةَ عَنَوَةً .

ومَثَلْتُ أمامي ترميني بِشَوَاطِ عَيْنِهَا وهي مسترسلة في

القول :

ألا تدعني وشأني ؟ ... لماذا تُصرُّ على أن تعترضَ
طريقي ؟ ... لماذا يَلِدُّ لك أن تتجسَّسَ عليَّ ؟ ...

فقلت خافضَ الصوت :

على رِسْلِكَ ، لن تطولَ زيارتي أَكْثَرَ من دقائق
معدودة ... جئتُ لأعتذرَ إليك عما بَدَر مِنِّي دونَ قصد ...
ليس ثمةً من تجسُّسٍ أو تدخُّلٍ ... أقسم لك على ذلك
أَغْلَظَ القَسَمِ ... إنها المصادفةُ التي قادتنِي إلى أن أعرف
ما عرفتُ من سرِّك ، وياله من سرٍّ أفعَمَ قلبي بالإكبارِ لكِ
والإجلال ... لا تظني بي ظنَّ السَّوءِ ... لستُ من الدناءةِ
والخِسةِ بحيث أنفي هدمَ حياتِكَ الأخرى — حياةِ الأسرةِ

الفاضلة ، الحياة التي أوترها لك .

وخفتُ بواذرُ غضبِها ، ولاحَ على محياها التأثيرُ .

وتدائنتُ منها وأنا أوصل القول :

أوكد لكِ أني ما قصدتُك اليوم إلا صديقاً يعمرُ قلبه
وفاءً وإخلاص ، وتحذوه رغبةٌ صادقةٌ في الأخذِ بيدكِ ...
ألا تمنحيني بضعة دقائق ؟ ...

وإذا هي تأخذُ يدي متجهةً إلى حجرةِ النوم ، فقلتُ
لها على الأثر في لهجةٍ حازمةٍ :

لا ... دعينا من حُجرةِ النوم ... نجلسُ هنا في الرَّذْهَة
هذا أليقُ ! ...

وألقتُ على نظرةٍ متفحّصةٍ .

وجلسنا على المتكأ .

وأظلتنا غاشيةٌ من صمت .

ووجدتني أقولُ ، وقد امتدت يدي إلى يديها تربتها
في ترفق :

لماذا أخفيتِ عني جليّة أمركِ؟...

— كيف تريدني أن أكشف لك عن حياة سميت
جهدي في صيانتها وجعلها بناءً عن الشُّبُهَاتِ؟... هناك
ابني ... ابني الوحيد ، إنه ذخيرة حياتي ... من أجله أعيش
وفي سبيله أبذل أعز ما أملك ... غاية ما أطمحُ إليه هو
أن أمهد لولدي هذا عيشة راضية وسمعة مصونة .

وأمسكتُ عن الكلام هنيئةً ، ثم حادت تقول في
صوت متهدج ، وقد هاج شعورها واحتد :

أريد أن يحيا بميداً عن ذل الحاجة وتعاسة الحرمان .
لقد ذقتُ مرارة هذه الحياة ، وسأحيه منها مادام في
جسدي عرق ينبض .

فقلت في هينة :

ألا تستطيعين أن تكفلي لوليك حياته المنشودة من
طريق غير الطريق الذي تسلكين ؟ ...

فقلت في توكيد :

ألم أتحدث إليك في ذلك من قبل ؟ ... إني في حاجة إلى
عَوْن مَادِّي سَخِي لكي أستطيع أن أكفل له تَنْشِئَةً
كريمة يندو بها رجلا عظيما .

وراحت ترمى يبصرها غُرُضَ الحجرة ؛ كأنما تحاول
استشفاف طيف خلف الجدران . وواصلت حديثها تقول :

لن أحزمه شيئا ... يجب أن يرتدى من الملابس
ماغلاً ... يجب أن يأكل من الطعام ما طاب ... يجب أن
يتعلم في مدارس ممتازة ... يجب أن يحيا حياة أبناء الطبقة
الراقية .

وأشرقَ وجهُها بابتسامةٍ زاهية ، وواجهتني وهي تقولُ
في سذاجةٍ محببةٍ ؛

أتصدّقُ أنه ، وهو في الثامنة الآن ، يجيد التحدث
بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية ؟... إنه يستطيع أن
يشاتمني بهذه اللغات ... شدّا ما هو خفيفُ الدم ، أنيسُ
الروح !...

وكرّرتُ في ضحك .

فقلتُ لها :

وددتُ أن أجالسه ، وأن أستمعَ إلى حديثه .
— أحقّاً تقول ؟...

ما أطيبَ صحبةَ الطفلِ الطّريف .

فالتّمتُ عيناها ، وقالت :

يسعدني أن تتعرفَ إليه ، وأن تأنسَ به ، وسترى أنه

فوقَ ما أَصِفَ لك .

— وكيف السبيلُ إلى لقائه ؟...

فانسرحت تفكر لحظَاتٍ ، ثم استأنفتِ القولَ :

سأدعوكَ إلى تناولِ الشاي معه هُناكَ .

— هُناكَ !؟...

— في شِقَّتِنَا بِمِيدَانِ المحطة... « بهية » هي التي تدعوكِ .

— ولكنَّ « بهية » صَارَحَتْنِي بأنها أَرَمَعْتُ قَتْلِي إِذَا

وَطِئْتُ قَدَمَايَ شِقَّتَهَا ... هُناكَ !...

فَرَبَّتْ يَدِي متحبيَّةً تقول :

سَلَّتْ يَدُكَ تَرْتَفَعُ لتُؤْذِيكَ !...

— أَجَادَةٌ أَنْتِ فَمَا تقولين ؟...

— دُونَ شَكٍّ ... إِنِّي أدعوكَ إلى زيارَتِي بِمِيدَانِ

المَحَطَّةِ ، والموعِدُ بعدَ غَدٍ ، في منتصفِ الساعةِ السادسةِ

بعد الظهر .

— أليسَ لي أن أنساءَ عن سِرِّ هذا الإِقلابِ الذى
طراً عليك ؟ ...

فأجابتْ وهى تُشيعُ يبصرها عنى :

لستُ أدرى ... كلُّ ما أستطيع أن أقوله هو أنى
أحسُ نحوكَ السَّاعةَ ثِقَةً لا حدَّ لها .

— أشكركِ ... سأحرصُ دائماً على أن أكونَ جديراً
بتلكِ الثِّقةِ الغاليةِ التى أعزُّ بها أيَّما اعتزازٍ !

— سألقاكِ « هناك » ... وستكون « خاطبي » ! ...

— خاطبكِ ؟ ...

— نعم ! ... لا يستطيع أن يزورنى فى دارى هناكِ
إلا مَنْ كان « خاطبي » .

— معقول ! ...

لقد عرفتكَ فى المستشفى الذى أعملُ ممرضةً فيه ...

إن عملي في المستشفى يستغرق وقتي أجمعَ خارجَ الدار ...
أما أنتَ فتقضي فترةَ التمرين في المستشفى الذي أعملُ فيه .

— أطيبُ أنا إذن ؟ ...

— لم تبلغِ بعدُ مرتبةَ الأطباء ... أنتَ طالبٌ في
أخرياتِ الدراسة .

— عظيم ... عظيم ..

— لقد تعارفنا في المستشفى ، واستوثقتُ بيننا علاقةً
حُبٍّ شريفٍ ، فتقدمتُ تخطُبُني ، وتواعدنا على الزواج ...
— حكايةٌ ظريفةٌ ! ...

— وستكونُ ، وأنتَ هناك في دار « بهية » ، شاباً مهذباً
محافظاً على التقاليد ، شاباً محتشماً كلَّ الإحتشام ، وقوراً
أشدَّ الوقار ، يبدو عليك الخجل ، كأنك فتاةٌ عذراء ! ...

— سأكونُ ممثلاً لدور جديد ! ...

— ألا يروُّك أن تبدو كأنك « خاطي » ؟

— ألا يروفتك أن تبدو كأنك «خاطي»؟ ...

— يروفتني حقا ... باعتبار أنه تمثيل! ...

— فليكن ...

— ألا تُعدّين هذا خدعة؟ ...

فحملتُ فيَّ غاضبةً ، ونصايحتُ تقول :

أرجو منك يا « فهمي » ألا تُعقّد الأمور بمثل هذه
الفلسفةِ العقيمة .

فَعَجِلْتُ أقول متضاحكا :

حقك على ... لا تمنّني ... سأنفذ أوامرك ...

فهضتُ وهي تردد :

خدعة!؟ ... عن أيّ خدعة تتكلّمُ أيها التلميذ الذكي؟ ...

ومثلتُ أمامي تحدقُ فيّ قائلةً :

كلنا مخادعون ، كلُّنا ... أُنستطيع أن تبريء نفسك

من المخادعة؟ ... كن صريحاً ... ألم تخادع؟ ... ألم تظهر
بغير مظهرك؟ ... ألم تكذب؟ ... ألم تنافق؟ ... ألم ...
— حسبك ... حسبك ... أنا الشيطان يتشكل في
صورة إنسان! ...

وتشابكت نظراتنا حيناً ..

وتضاحكنا معاً ...

وأقبلت على تحفّضني وتقول :

بل أنت ملاكي الحارس ... أنت كنز حبي ...

وما كادت شفاهنا تلجج في قبلة عارمة حتى رنّ جرس
الباب ، فانتزعت «نواعم» نفسها مني ، وهرعت إليه .

وإذا ضابط إنجليزى يقتحم ...

وإذا هي تتلقاه في تهلل وترحاب ...

ووجدتني أتوخى باب الشقة في خطو ثابت ، وأنا

شامخُ الأنفِ ، رافعُ الهامةِ ، أرمى الضابطَ الإنجليزى
بنظرة استِعلاءٍ وازدراءٍ ...

وطوانى الدرجُ فى مهبطى ، وقلبي يتنزى من سُخط
وحنق .

لنُ أُلِّىَ دعوتها إياى لتناول الشاى ... لن أستجيبَ
لدعوةِ امرأةٍ خداعةٍ ذاتِ وجهين ...
لن تطأُ قدَمي شِقَّتَها ، هنا أو هناك ...
انتهى ما بينى وبينها ... إلى غير مرجع ! ...

ما كاد يحل الموعد المضروبُ حتى كنتُ أمام شِقَّتِها
في ميدان المَحَطَّة .

وتزاحفتُ على سبعى أصواتُ هُتافاتٍ ، صَبِيانِيَّةِ
النِّبَرَاتِ يصحبُها ضَوْضاءٌ ، تَبَيَّنَتْ فيها هذهِ النداءاتِ :
فليجئَ بطلُ السَّكِينِ .. فليجئِ الميجرُ «عبد الله بك» ،
هازِمُ الإنجليز .

وما لبثتُ خفَّ الهتافُ حتى ارتفعَ صوتُ أجشٍ
مُتَسَلِّخٍ ، يردد :

يحيا الوطن ... تحيا مصرُ حرة ... لتسقطِ الحمايَة
إلى الأبد ...

فانطلق الصبيانُ يتصايحون بهذه النداءات في صَحْبٍ
شديد .

وأخذتني الحيرة فلم ألمس زراً الجرس .
وتضاءلتِ التهافتُ ، وفتح البابُ بفتةً ، وخرج صبي
بالغُ الشمرة ، تُدبِّدُ قدماءه ، وهو يحيي رُفقاءه تحيةً
توديع . وهبطَ الدرجَ في حِمِيَّةٍ ومراح ولم يكن
هذا الصبيُّ غيرَ ابنِ البوابِ الذي لقيته يومَ زيارتي الأولى
لهذه الدار .

وتدسَّستُ أنظاري داخلَ الردهةِ ، فألفتُ صُحبةً
من الأطفال ، على رؤوسهم طرايرٌ متباينةُ الشكولِ ،
مختلفةُ الألوان ، وفي أيديهم سيُوفٌ مشهورةٌ من صفيحٍ ،
وأعلامٌ وطنيةٌ من ورق .

وبدتُ « هي » فجأةً وسطَ الحشدِ تشق الصفوفَ قائلة :

اهدءُوا قليلاً يا أولادى ... آن لكم أن تستريحوا ...
لقد أجهدتكم أنفسكم .

فسكنت الجلبية ، وتزاييل الهرج والمرج .

ولحتنى « هى » عن كَشَبِ من الباب ، فهرولت إلى ،
يكسو وجهها حرج ، وقالت مُرَدَّةً :

تفضل !... تفضل !... ادخل !... ادخل !...

وأشارت إلى أن أُقْبِلَ على الردهة وهى تقول :
الضوضاء شديدة .

وراح الصبيان يرمقونى بنظرات تطلع وفضول ،
وجعلوا يتهامسون ويتغامزون .

ومِلْتُ عليها ألقى فى أذنها بتلك الكلمات :

إذا كان فى وجودى ما يَمُكِرُ صفو الصبيان فلا تُرجىء
الزيارة .

فأمسكت يدي وأحلتني قاعة الضيوف وهي تقول :
تفضل !... إن وقت الصبيان قد حان .. أولئك رفاق
ابني « وفيق » جاءوا يلعبون معه .. انتظري هنا لحظات ..
إني عائدة إليك .

ومضت عن القاعة عجلة الخطأ ، وظل الباب غير
مقفّل ، فاستطعت أن أشهد ما يدور في الردهة على مقربة .

ولاح وسط الجمع رجل قبيح أشيب ، ضامر الوجه ،
غائر الأشداق ، يروح ويندو بين الصبية في خطوات
متخلجة ، وهو يتفقد ويتفحص كأنه قائد كتبة يعرض
الجند . كانت في يده عصا يتوكأ عليها ، وإنه لقرط ضالته
وهزاله تكاد العين تخطئه في زمرة الصبيان . ولقد استبان
لي أنه يرتدى حلة سوداء بالية من حلل المراسم
« الرديجوت » ، يحلّ صدرها بعض الوشي والنقش
عليه هيئة الأوسمة ، والأطفال حواله يتواثبون ،

ويتصائحون ، راغبين إليه أن يَنْصَحَهُم ما وعدم إياه ، فينتهي
بجيبهم في إمرةٍ وتسُّلُط :

واحداً ، واحداً ... النظام أولاً ...

وانكب عليهم ينظّمهم صفوفًا ، ثم شرع يوزّع
عليهم قراطيسَ الطلوى . ثم مثل أمامهم ، يعالج أن يصلب
عُودَه ، وصاح متفخخ الأوداج :

النشيد ! ...

فأخذ الصبيان في الإنشاد ، والرجل يسير النغم
بيديه تارةً وبقدميه أخرى ، كأنه « ضابط إيقاع » في جُوفَةٍ
تعزف الموسيقى .

وشقتُ سماءَ الحجرةِ أصواتُ الصبيان منبعثةً
من حناجرهم بهذه الآيات :

مصر العزيزةُ لى وطنُ

، وهى الحَيَى وهى السَّكَنُ

وهي الفريدة في الزمن
وجميع ما فيها حسن
لسمائها الصيت البعيد
ولأرضها الخصب المزيد
وليلها الوافي السعيد
كل الأيدي والمن
وما إن أتم العلمان نشيدَ الوطنية حتى صاحَ الرجل :
تعظيم سلام !...

فارتفعت أيدي الصغار إلى جباههم ، شارة التحية .
واستأنفَ الرجلُ صيحه قائلاً :

انصراف ... !

فتار الهرجُ والترحُ بين العلمان ، وهم في مُنصرفهم
من الشقة ، وقد حمى بينهم لغو الحديث .

ولم يبقَ في الشَّقَّةِ إلا الرجلُ القَمِيُّ الأَشِيبُ ،
وبجانبه طفلٌ لم أَشْكُ في أَنه « وَفِيق » ...

وهلَّتْ « بهية » تقول للرجل :

آن لك أن تخلعِ سُرَّةَ المراسيمِ هذه ، وأن تستبدلَ
بها ملابسَكَ المألوفة . ولا تنسِ أن تغسِلَ وجهَ الغلامِ
وأن تُلبِسَه حُلَّةً نظيفة .

فأذعن الرجل لما تقوله « بهية » إذعانَ طفلٍ مطوَاعٍ
وهو يردد :

حسناً ... حسناً ...

واجتذبَ يَدَ الغلامِ ، وما لبثاً أن استخفياً في الطُرُقَةِ
الممدودة .

وجاءتني « بهية » تقول :

شَدَّ مَا أَنَا آسَفَةٌ لِهَذِهِ الضَّوْءِ الَّتِي اسْتَقْبَلَتْكَ سَاعَةَ
حُضُورِكَ ... وَلَكِنْ مَاذَا كَانَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَصْنَعَ ؟ ...
إِنَّهُمْ أَطْفَالٌ ، وَيَجِبُ أَنْ تَتِيحَ لَهُمْ فُرْصَةً لِهَوِيٍّ وَمَسْرَةٍ .
— مُؤَكَّد ... وَإِنِّي أَحِبُّ الْأَطْفَالَ ! ...

— أَصَحِّحُ هَذَا ؟ ...

— أَحِبُّهُمْ جَدًّا ... لِي إِخْوَةٌ وَأُخَوَاتٌ مُنَارِ أَرْعَاهُمْ ،
وَأَتَوَلَّى شُؤْنَهُمْ ... وَكَذَلِكَ أَلْعَبُ مَعَهُمْ ! ...
— يُسَعِدُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ هَذَا الْقَوْلَ ... وَالْآنَ تَعَالَى
مَعِيَ ! ... إِنَّ « الشَّايَ » يَنْتَظِرُكَ .

— شكرًا! ...

ونَهَضْنَا إِلَى قَاعَةِ الطَّعَامِ ، فَأَلْفَيْتُ مَائِدَةً حَافِلَةً بِأَطْيَابِ
الشُّطَائِرِ وَالْفَطَائِرِ وَالْحَلَوِيَّاتِ . قَعَلْتُ عَلَى الْفُورِ :

يَا لَهَا مِنْ وَلِيمَةٍ عَظِيمَةٍ ! ...

فَأَجَابَتْ فِي ابْتِسَامَةٍ رَقِيقَةٍ :

إِنِّي أُحْتَفَلُ بِزِيَارَةِ « خَاطِبِي » لِي فِي دَارِي زِيَارَتَهُ
الْأُولَى ! ...

فَقَرَعْتُ إِحْدَى يَدَيَّ بِالْأُخْرَى ، وَقُلْتُ :

هَذَا يُشْرَفُنِي ! ...

فَأَجَابَتْ وَفِي فَمِهَا ضِحْكَةٌ هَيِّنَةٌ :

لَا أَظُنْ .

— كَيْفَ لَا يُشْرَفُنِي أَنْ أَكُونَ « خَاطِبَ »

الْآنَسَةِ « بَهِيَّة » ؟ ...

فطَفَرْتُ مِنْهَا تَنْهَدَةً وَانْسَرَحَتْ هَائِمَةً نَظَرَاتُ تَهْمِهِمْ :
لَيْتَنِي كُنْتُ حَقًّا هَذِهِ الْآنَسَةُ ... إِذَنْ لَأَحْسَسْتُ بِالْغِ
السَّعَادَةِ بِزِيَارَةِ « خَاطِبِي » لِي .

فَقُلْتُ مُوَنَّا عَلَيْهَا الْأَمْرَ :

وَلَكِنَّكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْآنَسَةُ « بَهِيَّةٌ » حَقًّا ،
وَأَنَا « خَاطِبُكَ » ... لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكَرَ ذَلِكَ أَحَدٌ !...
— إِنَّكَ لَتَنْكَرُ هَذَا !...

— إِنِّي لَا أَنْكَرُ « الْأَمْرَ » فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ
مِنْ حَيَاتِنَا .

— إِنَّهَا لَحْظَةٌ مِنْ لَحْظَاتِ الْخَدِيعِ وَالْأَوْهَامِ !...

— لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُفَلِّتَ مِثْلَ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ
وَأِنْ كَانَتْ خَادِعَةً مُوْهِمَةً ... فَلَنَسْتَمِيعَ بِهَا هِيَ ؛
كَمَا هَيَّأَتْهَا لَنَا الْمَلَابِسَاتُ ... رُبَّمَا كَانَ لَنَا فِي عَالَمِ

الخدع والأوهام من ألوانِ المتعِ وللمذاتِ مالا يتسنى
في دنيا الحقيقةِ والواقعِ

— إن حديثك شائق ، وإنه ليفعنى طربا ... أحس
وأنا أستمعُ إليك أنى قد غدوتُ تلميذةً تُصنِى إلى نصائحِ
أستاذٍ رشيدٍ .

— إني لسعيدٌ فخور بأن تكونى تلميذةً فى النجية ...
ففتحنى ابتسامةً من ابتساماتها الأنيسةِ الرحيمةِ ...
ابتسامةٌ تجلّى فيها صفاءُ النفسِ ونقاءُ السريرةِ ، ثم انثنتُ
تصبُّ الشأى ، وتقدّمُ لى الفطائرَ وما إليها مما حوت
الصُّحُوفُ .

ومكثنا وقتاً نطعم ونشرب ، لا ننس ، ونحن تطارحُ
النظر ، وتهادى بالابتسام .

ولم يمضِ طويلٌ وقتٍ حتى طرقَ الحجرةَ الرجلُ

القَيْءُ الْأَشْيَبُ ، وهو مُمَسَّكٌ يَدِ الصَّبِيِّ ، وقد ارتدَى
كل منهما ثياباً غير ما كان يلبس .

ونهضت « بهية » تقدّمهما إلى ، فقالت مشيرةً
إلى الرجل :

أبي « عبد الله بك » .

فبادر الرجل مصحّحاً قولها :

الميجر « عبد الله بك » .

فأرسلت « بهية » ضحكةً مُقْتَضِبةً وهي تقول :

نسيتُ ... الميجر « عبد الله بك » ... لا تؤاخذني

يا أبي ! ...

والتفتت إلى أبيها تقولُ مشيرةً إلى :

« فهم » بك ... أو على الأصح « الدكتور فهم » ،

لقد حدثتك في شأنه .

فتقدم الرجل منى وقد أطبقَ على يديَّ مصافحاً
وهو يقول :

تشرفنا يا دكتور « فهم » !... إن ابنتي تُثني عليك
ثناءً طيباً .

والتفتت « بهية » إلى الصبي تقول :

وهذا ابني « وفيق » !...

فقلت على الفور معقّباً :

لا يمكن أن يكونَ غَيْرَ ذلك !...

فتضاحكتُ « بهيةُ » تقول :

كيف ؟...

— إنه نَسمةٌ أصيلةٌ منك ...

— يسعدني أن أسمعَ هذا !...

وأقبلتُ على الصبيِّ ، فواجهني بعينيَّ أمُّه المتضايقتين



... رجل أشيب ، كأنه قائد كتيبة يعرض الجند ! ...

ذَوَاتِي الْخَدَرِ وَالْفُتُورِ ، فوجدتني أحمله وأقبلُ جهته .
وما أسرعَ أن أخرجتُ من جيبِي عُلْبَةً تحوى مجموعةً
من أنابيبِ الألوانِ ، وناولته إياها أقول :
هذه هديةٌ صغيرةٌ لك يا صغيرى ...

فجعل يتفحص العُلْبَةَ لامعَ العينِ ، مهتزَّ الأعطافِ
وهو يقول :

إني أحبُّ الرسمَ .

— عظيم !! ...

وقال الجدُّ للصبي :

سنلوّنُ معاً بعضَ الصورِ التى عندى ... صورِ الماركِ

الحرية ... صورِ البطولة الوطنية ... !

وجمعنا مائدة الشاي ، تقوم على خدمتنا « بهية »
 في رِشاقَةٍ ومَهارة . ورأيت « عبدالله بك » يواجهني بقوله :
 إِنَّ ابْنِي غَفَلْتُ — عندما قدمتنى إليك — أن تذكر
 لك كيف ظفرتُ بِرُتْبة « ميجر » .

فسارقتُه ابنته نظراتٍ لا تَخْلُو من امتعاضٍ ،
 يَدَّ أنه ظلَّ متابعا حديثه ، غيرَ مَعْنِيٍّ بما تُبدي :

لا بدَّ أن يُلمَّ الدكتورُ « فهمٌ » بحقيقة المسألة .

ثم ما لبثَ أن ابتَدَرَنِي يقول :

إن « عُرابي » الزعيمَ الوطنيَّ ، هو الذي منحني

هذه الرُّبَّةُ ، وهو الذى عُلّقَ يَدِهِ عَلَى صَدْرِي
وَسَامَهَا الْعَظِيمَ .

فَهَمَمْتُ كَهَشًا وَأَنَا أَدَاوِلُ النَّظَرَ بَيْنَ الْآبِ وَابْنَتِهِ :
جَمِيلٌ ... جَمِيلٌ جَدًّا ...

وَتَدْفُقُ الرَّجْلُ فِي حَدِيثِهِ ، يُرْعِشُهُ الْحَمَاسُ ،
عَلَى حِينٍ كَانَ يَتَجَلَّى الْحَرَجُ عَلَى مُحْيَا ابْنَتِهِ ... قَالَ :

لَقَدْ اشْتَرَكْتُ فِي حَرْبِ « عَرَابِي » بِالْبَاعِ وَالذَّرَاعِ .
كَنتُ بَيْنَ مَتَطَوِّعِينَ مِنَ الْأَهْلِينَ تُؤَلَّفُ عَصَابَاتُ مَسْلُحَةٍ
تُصَلِّي جُنُودَ الْإِنْجِلِيزِ نِيرَانًا حَامِيَةً .

وَصَاحَ « وَفِيقُ » عِنْدَئِذٍ :

إِنْ جَدِّي نَصَبَ لِلْإِنْجِلِيزِ كَيْمِينَ ، وَذَبَحَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ...
جَدِّي بَطْلٌ كَبِيرٌ ، وَأَنَا أَحِبُّهُ حُبًّا يَسَاوِي الدُّنْيَا كُلَّهَا ...

وَتَعَلَّقَ الْهَبِيُّ بِعُنُقِ جَدِّهِ يُنْطِرُهُ وَابِلًا مِنَ الْقُبُلَاتِ ،

والجَدُّ مُشْرِقُ الوجهِ ، فَخُور . أَمَا « بهيمة » فكانت
تَجَرَّعُ مَا يَدُورُ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَهِيَ صَاغِرَةٌ ، لَا تُبْدِي
وَلَا تُعِيدُ ...

ووجَّهَ « وفیق » قَوْلَهُ إِلَى :

أَلَا تَرِيدُ أَنْ تَرَى بِعَيْنِكَ كَيْفَ نَعَبَ جَدِّي الْكَيْنِ
لِلْإِنْجِلِيزِ ، وَذَبَّحَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ؟ ... أَنَا وَجَدِّي نَسْتَطِيعُ
أَنْ نُزَيِّكَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ الْمَشْهُورَةَ .

وَلَمْ يَنْتَظِرِ الصَّبِيُّ جَوَابِي ... سَرَعَانَ مَا نَهَضَ هُوَ وَجَدُّهُ
يَثْلَانِ أَمَامِي قِصَّةَ « الْكَيْنِ » فِي سَدَاجَةِ الْغَةِ . وَاسْتَعَانَ
الْمَثَلَانَ فِي الْأَدَاءِ بِيَعَضِ أَثَاثِ الْحُجْرَةِ وَمَفْرُوشَاتِهَا
وَفِي خَتَامِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ بَرَزَتْ فِرْقَةُ الْمُتَطَوِّعِينَ بِرِثَاسَةِ
« الْبِجَرِ » ، وَاتَّقَضَتِ عَلَى الْأَعْدَاءِ تَفَتُّكَ بِهِمْ ؛ - اشْتَدَّ
التَّحَسُّسُ بِالْبَطْلَانِ حَتَّى كَادَا يُحَطِّمَانِ الْأَثَاثَ ، فَدَارَكَتِ
« بهيمة » الْأَمْرَ ، وَعَمَلَتْ عَلَى وَقْفِ الْمَذْبُوحَةِ ! ...

وعاد « الجدُّ وحفيذه » إلى مائدة الشاي ، والمرقُ
يتصبَّبُ من جبينهما ، وأنا أصفقُ لهما وأتهلِّلُ ، مُعجبًا
بما كانَ مِنْهُمَا من مُطُولَةٍ نادرَةٍ .

وجنحتُ « بهية » على أُذنِ أيها مُسرُّ إليه كلماتٍ ،
فنهضَ يَحْيِيَنِي مُودِّعًا ، وقد أخذَ يَدَ حفيده وهو يقول :
يجب أن يستريحَ الولدُ قبلَ العشاءِ ... سُرورى عظيمٌ
بلقائِكَ ... تشرفنا ... لا تقطعُ عنا زيارَتَكَ ...
وأدبر كلاهما عن قاعة المائدة .

وبعد صمتٍ قصيرٍ ، نهَّدتُ « بهية » تقول وعينها
لا تبارحانِ قدحَ الشاي :

عندى هنا فى الشُّقَّةِ طفلانِ ، أحدهما جاوزَ الثَّانِينَ ،
والآخرُ لا يَمُدُّو الثَّامِنَةَ ...

— أنسمينَ أبالكِ طفلاً ؟ ...

— بل أصغرُ من طفل ... لا حرجَ على
في أن أكشفَ لك حقيقةَ حالهِ ... إن عقله في تناقصٍ ،
ولكنه هادئٌ مسالمٌ ... إنه يبالغ في التصوُّر والتصوير ،
ويخلط بين الحقائق والأباطيل ...

— واشتراكه في حرب « عرابي » ؟ ...

— لقد اشترك فيها كل من عاصرها بقدرِ يَقلُّ
أو يكثرُ ! ...

— ورُبَّتهُ « الميجر » ؟ ...

— أما هذه فعلها عند الله ! ... وعند الراسخين
في العلم والتاريخ ! ...

— أكان أبوك من رجالِ الجيش ؟ ...

— كان مدرساً للغة العربية ، وكان مشغولاً أيَّما شغفٍ

بقراءة أحداث الحروب ، وسير الأبطال ...
والآن وقد شأخ عقله ونال منه الضعف ، وأصبح
قعيد الدار ، لم يجد بداً من أن ينشئ لنفسه دنياء
علي هواه ... فهو يجمع الأطفال ، ويقيم نفسه
عليهم زعيماً ، وهو يُنظم منهم مظاهرات داخلية
في نطاق الشقة الضيق ، ويثُل معهم أحداثاً
« الكمين » كما شاهدها أنت الساعة ... ولا أخفي
عنك أنني ضجرة ، غير مطمئنة إلى ملازمة ولدى له
في هذه الألاعيب الزائفة .

— لماذا تصفينا بهذا الوصف ؟ ... إني معجب
بها كل الإعجاب ! ... الحق أنها جديرة أن تبث بين جنبي
الصبي روح الوطنية والبطولة .

— كل شيء إذا جاوز حدّه انقلب إلى ضدّه ..

لا أريدُ أن يشبَّ ابني مَخدوعاً بالأوهام ... إني أعِدُّه
لحياةٍ سَوِيَّةٍ قِوامُها الجِدُّ والعمل ، وطابَعُها الهدوءُ
والإِتِّزان ، فأما حياة التهورِ والطيشِ فإني أخشى أن
تُورِدَهُ مواردُ البوارِ !...

سلكْتُ السبيلُ إلى دارى ، وفى رأسي أفكارٌ تعْتَلِجُ ،
وبين جوانحي مشاعرٌ أشتاتٌ .

وما إنْ حَلَلْتُ الدارَ حتى جنحتُ إلى النافذة أتَسَمُّ^١
هواءَ العَشِيَّةِ ، وأنا أَعْرِضُ تلكَ المشاهدَ العجيبةَ التى مرت
بى فى شِقَّةِ « بهية » ... كنت أحاول أنْ أَسْتَجِلِي^٢
فِيهَا صورةَ « الغانية الأم » ، تلكَ التى تتقاسمُهَا حَيَاتَانِ
متضارِبَتَانِ . واثْنَيْتُ أَفْكَرُ فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ عِلَاقَتِي^٣
بِهَا فى قَابِلِ أَيَّامِي ... أليسَ لَزَامًا أَنْ أَحْدَثَ تلكَ العِلَاقَةُ
مِنْذُ السَّاعَةِ ؟ ... أَيُّ الشَّخْصَيْنِ أَكُونُ : الخاطِبُ العَفِيفُ^٤
لِلسَيِّدَةِ « بهية » ، أم الخليلُ السَّادِرُ لِلْغَانِيَةِ « نواعم » ؟ ...

ولم أَرْكَنْ عَلَى فَرْطِ التَّفْكِيرِ إِلَى قَرَارٍ ، فَانْهَوَيْتُ عَلَى سِرِّي
مَكْدُودَ الذَّهْنِ ، مَسْتَوْفِزَ الْأَعْصَابِ .

وتَلَا حَقَّتِ اللَّيَالِي ، وَالْحَيَرَةُ بِي تَشْتَدُّ ، وَالْقَلْقُ
يَسْتَبِدُّ ... وَكَانَ مِمَّا يُذَكِّي حَيَرَتِي وَقَلْقِي مَا أَحْسَهُ
نَحْوُ الْغَانِيَةِ « نَوَاعِمَ » مِنْ تَلْهَبِ شَوْقٍ ، وَاضْطِرَامِ
حَيْنٍ . وَلَشَدَّ مَا اسْتَعَرْتُ رَغْبَتِي فِي أَنْ أَضْمَهَا بَيْنَ ذِرَاعَيَّ ،
وَأَعْتَصِرَ شَفَتَيْهَا بِقُبْلَاتِ هَيْمَانَ ... عَلَى أَنِّي كُنْتُ لَا أَبْتُ
أَنْ يَثُوبَ إِلَيَّ رَمَادِي ، فَأَشْمُرُ بِخِزْيٍ يَخَالِجُهُ أَسَى ،
وَأُنْحِي عَلَى نَفْسِي بِاللَّوْمِ وَالتَّأْنِيبِ ؛ إِذْ تَعَبْتُ بِخِيَالِي
هَذِهِ النَّزَوَاتُ الشَّائِنَةُ .

... وَيَوْمًا لَمْ أَطِقْ صَبْرًا ، فَطَرْتُ إِلَيْهَا فِي شِقَّتِهَا
الرَّمِيَّةَ ، فَتَلَقَّيْتُ فِي حَقَاوَةِ لَيْسَ وَرَاءَهَا مَزِيدٌ ... وَأَمْضَيْنَا
مَعًا سَاعَةً مِنْ أَعْنَفِ سَاعَاتِ الْحُبِّ الْمُنْهُومِ ... وَمِنْ عَجَبٍ
أَنِّي لَمْ أَفَاتِحْهَا ، وَأَنَّهَا كَذَلِكَ لَمْ تَفَاتِحْنِي بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ

تعلقُ بحفلةِ الشايِ من قُربٍ أو بُعْدٍ . على أني وأنا على
أهبةِ الخروج ، مبارحاً الشَّقةَ ، سمعتها تهمسُ في أذني قائلة :
لقد سألَ عنكَ « الميجرُ » ، وكذلك سألَ عنكَ
حفيده ... لقد تركتَ في قلبيهما أثراً طيباً بزيارتك
وبحديثك .

— شكراً جزيلاً ... ذلك شعورى نحوهما .

— إنها يتوقان إلى لُقيالك .

— أيسمحُ لي بزيارةٍ أخرى ؟ ...

— باعتبارك « خاطبَ بهيئة » ... وفي الحدودِ
المرسومةِ ! ...

وتلاعبتُ على شِفاهنا ابتساماتٌ ...

وسرعانَ ما حدّدتُ لي موعدَ الزيارة في شِقَّتِها
عَيْدانِ المحطة ، شِقةِ السيدة « بهية » .

واستجبتُ للدعوةِ في موعِدها المضروب !...
وكان « الميجرُ » « عبد الله بك » أولَ من لَقِيَنِي ...
وساعةَ وَقَعَ بصرُهُ عَلَيَّ ، انطلقَ لسانُهُ بالإنشادِ ووجهُهُ
مبسوطُ الأسارير ... قال :

هل تعلمون تحيتي عند القُوم إليكمُ
أنا إن رأيتُ جماعةً قلتُ السلامُ عليكمُ
فأُجِبته متَحَسِّساً :

وعليكم ألفُ سلامٍ ... ولكَ ألفُ إِكرامٍ ... !
وَجَرَّني من يدي يَمَاشِينِي إلى قاعةِ الضُيوفِ ، وجلس
قِبالَتِي يُحِينِي مَرَدِّدَا قولِهِ :

أهلاً وسهلاً يا دكتور « فهم » ... تَوَرَّت اليَتَمَ .
ثم غَشِيَهُ صَمْتُ ، وركبتُ سَحَنَتَهُ جَهَامَةً وَجِندٌ ،
ثم أَشْرَعَ بصرَهُ إلىَّ وجعلَ يُصَوِّبُهُ وَيَصْعَدُّهُ في ، وأخيراً

قال في تعاظم وكبرياء :

حدَّثتني ابنتي برغبتك في الزواج بها ... هذا حسن ،
ولكنني أرى واجباً عليّ ، قبل أن أُمْنَحَ رِضَايَ ،
قبل أن أوافقَ على الشُّروع في الزواج ، أن أُنْقِصَ
كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أمرك ... لا أزوِّجُ ابنتي « بهية »
ملك الطُّهر والعَفَافِ ، إلَّا لِمَنْ هُوَ كَفٍ لَهَا ... سأُلْقِي
عليك أسئلةً يجبُ أن تُجِيبَنِي عنها في وُضوحٍ وصدقٍ ...
واعلمُ أنَّك أمامَ رجلٍ يَصَارِحُكَ بأنَّه لا يُمَوِّزُهُ نَفَادُ
البصيرةِ ، وصدقُ الفِرَاسَةِ ، وأنَّ له تجاربَ لا تعدُّ
ولا تُحصى ، فمنَ الخيرِ لك أن تختصرَ الطريقَ ،
وأن تُخبرَنِي بجليَّةِ أمرك في غير مُخادَعَةٍ ولا تضليل .

— مَعَاذَ اللَّهِ ... جَاشَا وَكَلَّا .

فما جَلَنِي بقوله :

لا تقاطعني من فضلك ... عليك أن تقولَ الحقَّ ،

كلّ الحقّ ، ولا شيء غير الحقّ ... أَوْعَيْتَ ما أريدُ ؟...

— وعَيْتَهُ تمامَ الوَعْيِ يا سيدي « الميجر » ...!

واستوى في جِلْسَتِهِ متنفخاً مُسْتَدِيكاً ، ثم شرع
يُلْقِي عَلَى فَيْضِ أَسْئَلَتِهِ ؛ كَأَنَّهُ قَاضِي تَحْقِيقٍ ، شديدُ
المراسِ ، يُسَائِلُ مَتَمّاً تُثْقَلُ الخَطَايا ، وتكالبُ حوله
الرَّيْبُ ... وأعترف أن من أسألتِهِ ما كانَ مَنْطِقِيّاً يُوجِي
به العقلُ والعاطفةُ ، على أن الجانبَ الأكبرَ من تلك
الأسئلةِ كانَ موسُوماً بالتفاهةِ والطفوليةِ . ولقد صُفِّتُ
له إجاباتي مُبرّقةً ، مهوشةً في لَهجَةٍ تَفْخِيْمٍ وتهويل .
فلم أدعُ شيئاً مما يُحِبُّهُ إِلَّا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِي . ولم أدعُ شيئاً
مما يَكْرَهُ إِلَّا نَفَيْتُهُ عَنِّي ، فَهَضَ يَحْتَضِنُنِي وَيَقْبَلُنِي
وهو يكرّر :

شَدِّ ما أنا فخورٌ بك يا دكتور « فهم » ... ذلك
كان ظنّي بك وأملِي فيكَ ... إن فِرَاسَتِي لا تُخْطِئُ ،

وإن أَلْمَغِيَّتِي لَا تَخِيبُ!...

ووجدتني على الفور أقول :

والآن ألبس من حَقِّي أن أستوضح منك بعض
ما يتعلق بحياتك وعكاظتك الاجتماعية ، بوصفك والد
« مخطوبتي » ؟...

فتصايح وهو يضرب رُكبتَه يديه :

حُبًا وكرامة .

وَلَمْ يُنْهِلْنِي حَتَّى أَسْأَلَ ، وإنما أسرعَ يَرَوِي في حرارة
وتحمس ، مغامراته الحربية ، فكانني أصغى إلى شاعر
من شعراء « الرِّبَابَةِ » وهو يَرَوِي مُنْشِداً مغامرات
« أَبِي زَيْدِ الْهَلَالِ » ، و« الزَّنَاتِي خَلِيفَةً » .

وما إن أتم حديثه حتى نهضتُ إليه محتضناً مقبلاً
وأنا أكرّر :

شد ما أنا فقورٌ بك يا سيدى « الميجر » ... يالك
من فارسٍ مغوارٍ! ...

وأقبلتُ « بهيمةٌ » فى تلك اللحظة ، فقالتُ
متضاحكةً :

ما هذا الوثأَمُ العجيب ؟ ...

فقال لها أبوها من فوره :

لا مانع عندى من زواجك بالدكتور « فهم » ...
إنه طيب عظيم ! ...

وتوخَّاني بقوله :

الآن لا حرجَ عليك فى أن تُقبِّلها أمامى قبله
الخطبة ... قبله واحدة فقط ... وليس لك أن
تزيد ! ...

وقاربتُ خطوِي من « بهيَّة » في توقُّرٍ واتِّادٍ ،
فألفيتها قد أرخت جفنيها من تخاجُلٍ واستحياء ، فطبعتُ
على جينها أزلَ قبلةٍ عفيفةٍ خاطفةٍ !...

وفي أثناء جلستى إلى الجد وابنته ، عرض الحديث
للصبي « وفيقي » ، فقلتُ في تطرُّف :

كيف حالُ هذا المصفور اللطيفِ ؟...

فأجابني « بهيَّةٌ » :

لقد ألَبَّ به وَعَكَّةٌ ، وهو مُلَازِمٌ مَخْدَعَه ...

فأنبرى الجدُّ يقول :

أبكون الدكتور في منزلنا ولا يفحصُ المريضَ ؟...

فقلتُ مبادراً :

إني على أتمِّ استعداد .

ونهنضاً جميعاً إلى مخدع الغلام ، فإذا هو على جانب
السريـر يلعب بالورق مع ابن البواب ، فما إن رآني
حتى وقف مُقبِلاً عليّ ، وجعل يمتنقني مهللاً الوجه ...
فجذبتُ من جيبِي قرطاساً فيه سُكُوكٌ من الحلويات ،
وناولته إياه ، وأنا أقول :

هذا مسموحٌ به بأمرِ الطيب .

فأسرعتُ « بهيئةً » تقول :

مسموحٌ بمقاديرٍ صغيرة .

وقالت لابنها في لهجةٍ عليها منحةٌ حَزْمٌ :

خذْ من القرطاس قطعةً واحدةً لنفسك ، وقدمْ
لنا ما تجودُ به مما يَبْقَى .

فأطاعَ الغلامُ ، وطفقَ يوزعُ علينا الحلوى .

وأجستهُ على ركبتيّ ، وأنا أجرى عليه الفحصَ

الطبيّ الموهوم . ولم أثبت أن داعبتُ خدّه قائلاً :
أنت فتى مدللٌ ... والدتك بالغة العناية بك ...
هذا هو مرصك ! ...

فانبثق صوتُ الجدِّ يقول ، وهو يحاول أن يسمو
بهامته ويتطاول :

ذلك رأيي أنا أيضاً .

وواصلتُ قولي للغلام :

والآن أتيّ لعبة الورق مع صاحبك ...

فصاح « وفاق » :

أريد أن ألعب مع جدّي لعبة الكمين .

فقال أمّه في مَرَامَةٍ :

أما اليوم فلا ... هذه اللعبة متعبة ... يستطيعُ

جدُّك أن يثّلها أمامك مع صاحبك « عثمان » .

فعلا صوتُ الغلام بقوله :

نعم !... نعم !... جَدِّي يمثِّلها أُمَامِي مع « عُمَان » ...
ولكنَّ يَجِبُ أن يَشْتَرِكَ في التَّمثِيلِ الدُّكْتُورُ ، وكذلكِ
أَنْتِ يَا « مَامَا » ...

فَقَالَتْ أُمُّهُ :

أَنَا ؟ ... مُسْتَحِيلٌ ... !

فَقُلْتُ عَلَى الْفُورِ :

لَيْسَ هُنَاكَ مُسْتَحِيلٌ ... يَجِبُ أن نَشْتَرِكَ جَمِيعاً
فِي التَّمثِيلِ أُمَامَ « وَفِيهِ » مَرَضَاتُهُ .
وَطَفِقَ الْغُلَامُ يَرُدُّدُ :

نعم ... نعم ... كُلُّكُمْ تَشْتَرِكُونَ فِي اللَّبِّ .
وَمَا عَمَّ أن قَفَزَ مُتَعَلِّقاً بِعُنُقِ أُمِّهِ يَحَاصِرُهَا بِقُبُلَاتِهِ
الْجَامِحَةِ ، فَلَمْ تَمْلِكْ « بَهِيَّةٌ » إِلَّا أن تُنْذِعْنَ

وَمَضَى الْجَدُّ، وَقَدْ خَفَّتْ بِهِ حَيَوِيَّةٌ وَنَشْطَةٌ ،
وَمَا لَبَثَ أَنْ رَجَعَ مُحْمَلًا بِمُدَّةِ التَّمِيلِ ، وَاخْتَارُوا إِلَى مَعَ
ابْنِ الْبَوَابِ دَوْرَ « الْفِرْقَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ » الَّتِي نَصَبَ
لَهَا « الْمِيجِرُ عَبْدِ اللَّهِ بَكْ » كَمِينَهُ الْجَبَّارَ ... وَمَا أَسْرَعَ
أَنْ اتَّخَذْنَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّرَاطِيرَ ، وَعَلَقْنَا فِي أَوْسَاطِنَا
سُيُوفًا مِنْ الصَّفِيحِ ... وَبَدَأْنَا التَّمِيلَ تَحْتَ إِشْرَافِ
« وَفِيقِ » .

وَرَأَيْتُ « بَهِيَّةَ » تُقْبِلُ عَلَى اللَّعِبِ ، مَرِحَةً ، تَحَاوِلُ
جُهْدَ الْإِمْكَانِ أَنْ تُفِيضَ عَلَى ابْنِهَا بَهْجَةً وَمَسَرَّةَ ...
وَأَخِيرًا وَقَعَتْ « الْفِرْقَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ » فِي الشَّرْكَ ، فَانْقَضَ
« الْمِيجِرُ » عَلَيْهَا بِسَيْفِهِ يَكِيلُ لَهَا الطَّمَنَاتِ الْحَامِيَةَ ...
وَارْتَجَّتِ الْحَجَرَةُ بِالتَّصَايُحِ وَالِدَبْدَبَةِ ... وَكَادَتْ تَنْبَثُ
مِنْ حُلْقِي صِيحَةً اسْتِنَافَةً تُنْجِينِي مِنْ ضَرَبَاتِ « الْمِيجِرِ »
الْمُتَوَالِيَةِ ... وَعَجَلْتُ إِلَى « بَهِيَّةَ » فَوَقَفْتُ الْمَذْبُحَةَ ،

وأخرجتني من تحت الأتقاض . وأنا في حالٍ يُرثَى لها ،
وهي تقول :

انتهتِ الموقِعةُ ... ليس أمامَ العدوِّ إلا التسليمُ !...
وتعالى الهُتافُ والتصفيقُ .

وكان خِتامُ الشَّهَد أن مَثَلنا جميعاً في الصفِّ أمامَ
« الميجر » ومعنا « بهية » ورُحْنًا نُنشد :

مصر العزيزةُ لى وطنُ
وهى الحِمْى وهى السَّكَنُ
وهى الفريدةُ فى الزمنُ
وجميعُ ما فيها حسنٌ ...

ثم انْتَبَنا نُؤدى التحيةَ العريضةَ للبطلِ المغوار ،
وتلقينا منه أَمراً الانصراف .

وقبلَ مَبارحتي الدارَ ، و « بهية » بالباب تودِّعني ،

قالت لي مُشْفِقَةً :

لقد أثقلوا عليك ... لقد ضايقوك ...!

فقلتُ على الفور ، وصوتِي نِمْ عن إخلاصٍ مَكِينٍ :

كل ما يكفل البهجة والأنس « لوفيق » وأمه

يسمُدني أيّما إسعادٍ ...

لقد آمَحُمُ ليَ الفرصةَ كي أَسْتَعِيدَ أيامَ الطفولةِ

عِما فيها من عَرَبْدَةٍ وَصَنَبٍ .

فأقبلتُ علىَّ تَضَغُطُ يَدِي وتقول :

أنت طيبُ القلبِ يا « فهم » ...!

— إني محبٌ ... عاشقٌ ... ولهانُ ...!

فلستَنارَ وجْهها ، ومثلنا لحَطَّاتٍ تَجْلَذُ نظراتِ

شغفٍ وهيامٍ ... وإذا هي تميلُ على أذُنِي هَامِسَةً :

إن « نواعم » تنتظرك بعد غد .
فهيئمتُ في شَغَفٍ :
سأطيرُ إليها بحسني وقلبي معا ...!

وَقَسَّنتُ وَقْتِي بَيْنَ زِيَارَةِ « نَوَاعِمَ » الْغَايَةِ الطَّرُوبِ ،
وَزِيَارَةِ مَخْطُوبَتِي « بَهِيَّةَ » مِثَالِ الْحَشْمَةِ وَالْعَفَافِ !! ...

وَكُنْتُ أَتَّخِذُ لِكُلِّ مِنَ الزِّيَارَتَيْنِ مَا يَلَامُهُمَا ،
فَأَصْبَحْتُ لِي - أَنَا أَيْضًا - فِي الْحَيَاةِ شَخْصِيَّتَانِ مُمْتَبِزَتَانِ :
إِحْدَاهُمَا تُنَاقِضُ الْأُخْرَى تَمَامَ الْمُنَاقِضَةِ ... وَالَّذِي أَذْهَشَنِي .
أَنْنِي لَمْ أَحْصِ فِي الْأَمْرِ مِنْ غَرَابَةِ أَوْ شُدُوزٍ ، بَلْ لَقَدْ
أَلْفَيْتُهُ بِسَائِرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْمَشَاعِرِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْسَادَةِ
بَنَى الْبَشَرِ ! ...

لَمْ أَعُدْ أَرَى مَا يَقْتَضِي الْحَيْرَةَ أَوْ الْمَجَبَّ فِي الْحَيَاتَيْنِ
الَّتَيْنِ تَحْيَاهُمَا « صَاحِبَتِي » بِشَخْصِيَّتَيْهَا ، عَلَى مَا يَنْهُمَا

من تعارض .

لقد استبان لي في وضوح أنه لا غنية لكل امرئ في دنياه عن قناعتين ، يختلف كل منهما عن الآخر أشد اختلاف ، عرف المرء ذلك من نفسه أو لم يعرف . وإنه ليتخذ هذين القناعتين ، وفقاً لطبيعة الفطرة من ناحية ، وطوعاً لمقتضيات الأحوال والملابس من ناحية أخرى .

اصبحتُ « رفيقاً رسمياً » « لنواعم » ، أحملُ في جيبى مفتاح شقتها الخاصة ، وأحضرُ في الموعد الذي أختارُ ، وأقضى معها من الوقت ما أشاء ، وأجلبُ للدار مئونة من بُن وسكر وصابون ، وأودى أجرَةَ المسكن في مطلع الشهر ... كل هذا وفق ما ترسمه لي ، وما تمليه عليّ ... كل هذا بحسب ما تُعطيني من مال !

كنتُ أحيأ معها ، بشخصية الخليل ، حياة عربة

وَمُجُوبٍ ، نَسْتَبِيحُ مِنْ مَلَكَّاتِ الْحُبِّ وَمَعَايِشِهِ
مَا لَا يَخْطُرُ بِبَالٍ .

وَرَأَيْتُنِي ، كُلَّمَا تَوَثَّقْتُ عِلَاقِي بِهَا عَلَى هَذَا النَحْوِ
ازْدَدْتُ مِنْ كَلْفٍ وَتَوَلَّيْتُ ... كُلَّمَا عَبَيْتُ مِنَ الْكَأْسِ
الْمُتَرَعَّةِ لِأُطْفِئَ النَّارَ الْوَارِيَّةَ مِنْ بَيْنِ ضُلُوعِي ، اَزْدَادَ الْقَلْبُ
مِنْ تَضَرُّمٍ وَحْنِينَ !...

كَذَلِكَ أَصْبَحْتُ « خَاطِبًا رَسْمِيًّا » « لِبَيْتَةِ » أَقْصَى
مَعَهَا سَوِيَعَاتِ هَائِلَةٍ ، حَافِلَةً بِالْمُتَمِّعِ الصَّافِيَةِ ، مُتَمِّعِ الْحُبِّ
الْعُذْرِيِّ الطَّهَّورِ !...

وَأَحْبَبَنِي « وَفِيقِي » وَأَحْبَبْتُهُ ، وَارْتَفَعْتُ يَمْنَانَا
الْكُلْفَةُ ، فَغَدَوْتُ كَأَنِّي فِي الْأَسْرَةِ عَضْوُ أَصِيلٍ . وَأَخَذَ
يَدْعُونِي بِعَمِّي الدَّكْتُورِ . وَكُنْتُ أَمْضِي الْوَقْتَ الْأَعْبَهُ ،
وَأَقْصُ عَلَيْهِ الْمَسَامِرَاتِ وَالْأَفَاكِيَةَ ، وَأُطَارِحُهُ الْأَحَابِيَّ
وَالْأَلْفَازَ ، فَيَعْلُو بِضَحِكَاتِهِ الْفَتِيَّةِ ، الْمُجَلِّطَةِ ، تَمَثَّلُ

فيها سذاجة الطفولة وفورة الحياة .

أما « الميجر عبد الله بك » فإنه يلقاني مُرحِّبًا بي ،
ويحييني بمقطوعاته الشعرية المستظرفة ، ويخصني بسرِّدِ
مغامراته الخرية التي لا تنتهى ... فلا يجد مني إلا أذنًا
صاغية ؛ ولياناً يمجِّد بطولته الخالدة .

ولطالما زجني مع صبيانهِ أَشْرَكْهُمْ في مظاهراتهم
الضاحية ، وألعبُ معهم « لُعبة الكمين » ؛ إذ برَّعتُ
أنا وابنُ البواب ، في تمثيلِ دورِ « الفرقة الإنجليزية »
التي تشق دأماً بمصيرها المشؤم .

وقد أفلحتُ في دفع « بهية » إلى أن تقاسمتنا
الأعيننا تلك ، فكانت تلازمُ ولدَّها ، تحملُ معه الأعلامَ
الوطنية وتُنشِدُ الأناشيدَ المتخمسة ، وتردُّدُ الهتافاتِ
المختلفة حياة مصرَ وحرَّيتها واتصارها الوشيك .



أَلْعَبُ مَعَهُم «لَعِبَةُ الْكَمِينِ» إِذْ بَرَعْتُ أَنَا وَابْنُ الْبَوَابِ ، وَنَتَمَلَّ دَوْرَ
«الْفِرْقَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ» الَّتِي تَشَقُّ دَائِمًا بِحَصِيرِهَا الْمَشْتُومَ !...

وكاذَ ينتهي بها المطافُ إلى أن تتراعى على التَّسْكَا ،
وقد ضمت ولدَها إلى صدرِها تقبُّله ، وهي تُكرِّرُ
بالضحكاتِ ، ومحيّاها متفرجٌ يتمعُّ بالحَيوية والاهتِياجِ .

مرت عَجَلاً أشهرُ الصيف ، واتتهت تلك الإجازة
السَّوِيَّةُ ، التي نَنَعَمُ فيها بالراحةِ والبهجةِ والإنِّطلاقِ .

ها قد حانُ موعدُ أُوْبَتِي إلى القاهرة ، حيثُ أُستقبلُ
مألوفَ حَيَاتِي ، في داري ، مع أسرتي ، وأُستأنفُ ما هو
مفروضٌ عليَّ من درسٍ واستذكارٍ .

ودَّعْتُ « نواعمَ » خليلتي الغانية ، وفي القلبِ ما فيه
من وَجْدٍ وَالتِّياعِ . وكذلك ودَّعْتُ « بهية » ، مخطوبتي ،
رَبَّةَ الصَّوْنِ والمُغَافِ ، وابنتها « وفيقا » النِّسْلَامَ الحُلُوَّ
الظَّرِيفَ ، وأَبَاهَا « الميجر عبد الله بك » ، رمزَ البطولةِ

في عالم الخيالات والأوهام .

ودعْتُ حياتي في المصيفِ بشقيها فودعتُ معها صفوَ
العيشِ وما فيه من رَوْحٍ ورِيحَانٍ .

يَبْدُ أَنْ خَاطِرَةً سَنَحْتُ لِي ، فَأَنِسْتُ بِهَا غَايَةَ الْأُنْسِ ،
وَسُرْعَانَ مَا اسْتَبَدَّتْ بِفِكْرِي أَجْمَعَ ؛ إِذْ بَنَيْتُ الْعِزْمَ
عَلَى الْأَلَّا يَطْوِلَ أَمْدٌ مَغْيِبِي عَنِ النَّفْرِ . سَوْفَ لَا أَقْضِي
فِي الْعَاصِمَةِ مِنَ الْوَقْتِ إِلَّا رِيثًا أَمْهَدُ أَمْرِي وَأُعِدُّ عُدَّتِي
لِلنَّقَلَةِ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَأَجْعَلُهَا لِي مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

عَلَى أَنِّي لَمْ أَكْذِبْ أَصْلًا إِلَى الْقَاهِرَةِ حَتَّى اسْتَقْبَلْتَنِي
حَيَاتِي الْمَعْهُودَةُ ، بِأَنْظَمَتِهَا الرَّائِبَةِ ، وَعَمَلِهَا الْجَارِفِ ،
وَالزَّامَاتِهَا الْمُتَشَابِكَةِ ، فَصَدَّتْنِي عَنْ إِنْفَازِ رَغْبَتِي كُلِّ الصَّدِّ ،
وَإِنْ ظَلَّ الْأَمَلُ يُغَادِينِي وَيُرَاوِحُنِي بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ ؛
لِأَحْقَقِ حُلُمِي الْجَمِيلَ فِي مَوْعِدٍ قَرِيبٍ .

وَفِي بُكْرَةِ يَوْمٍ ، وَصَحِيفَةِ الصَّبَاحِ بَيْنَ يَدَيَّ ،

أَقْلَبُ النَّظَرَ بَيْنَ صَفْحَاتِهَا الْعِراضِ ، عَلِقْتُ عَيْنِي بِصُورَةٍ
عَلَى رَأْسِ أَنْبِيَاءِ الْوَفَايَاتِ ، وَإِذَا أَنَا تَصِيبُنِي رِغْدَةٌ ،
وَإِذَا يَدِي تَتَرَاخَى حَتَّى تَهَاوَتْ عَنْهَا الصَّفْحَةُ ، وَإِذَا بَصْرِي
قَدْ سَدَرَ وَكَأَنَّمَا انْسَدَلَتْ عَلَيْهِ غَاشِيَةٌ .

وَأَمَحْنَيْتُ الْتِقِطُ الصَّحِيفَةَ ، وَطَفِقْتُ أَنْعِمَ النَّظَرَ
فِي الصُّورَةِ ، وَأَتَفَحَّصُ مَا لَهَا مِنْ سِمَاتٍ ، فَلَمْ يَزِدْنِي إِنْعَامُ
النَّظَرِ ، وَلَا فَرَطُ التَّفَحُّصِ إِلَّا يَقِينًا .

هَاتَانِ الْعَيْنَانِ الضَّيْقَتَانِ ، وَمَا تَتَمَيَّزَانِ بِهِ مِنْ خَدَرٍ
وَنَعَاسٍ . هُمَا ، هُمَا ... إِنْهُمَا تَتَحَدَّثَانِ إِلَى فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ
بَأَن صَاحِبَهُمَا الصَّغِيرَ قَدْ غَدَا فِي ذِمَّةِ الْمَنُونِ ، وَلَمْ يُدْ لَهُ فِي
دُنْيَانَا مِنْ نَصِيبٍ ! ...

وَتَحَاذَلْتُ أَوْصَالِي ، وَأَنَا أَحْسُ كَأَن وَخْشًا ضَارِيًا جَمَّ
عَلَى صَدْرِي . يُوشِكُ أَنْ يَرْهَقَ مِنِّي الْأَنْفَاسَ ...
يَا لِهَذَا الْحَادِثِ الْجَلَلِ ... مَا أَسْوَأَ وَقْعَهُ عَلَى قَلْبٍ

تلك الأمم الروم!... أية فجعة تلك التي خباها القدر ،
ورمى بها تلك الأسرة الآمنة المطمئنة ؟... هذا الصبي
الأنيس ، هذا العصفور المرح ، هذه الفؤارة من الحيوية
الناضرة ، كيف يصبح ذلك كله بين عشية وضحاها خبراً
من الأخبار ، كأن لم يكن بالأمس ملء الأسماع والأبصار ؟...
نهضتُ إلى المحطة ، لِيُقَلِّنى أولُ قطار إلى الشحر .

وتناقلتُ الساعاتُ في مرَّها ، على الرغم من سرعة
القطار ، وأنا في دوامة من شجون وآلام .

وما إنْ بلغتُ محطة الإسكندرية حتى تقافزتُ إلى
الميدان . ومن ثمَّ سلكْتُ السبيل إلى المبنى الذي تسكنُ
فيه « بهية » ، وما كدتُ أقاربه حتى استشعرتُ تهيباً
ورَهبةً ، وتناصرتُ خطاي ، وألفيتني أرتدُّ على
عَقِي هَرَباً .

لبثتُ هائمًا على وجهي وقتًا في جنبات الميدان ،
لا أنا بقادر على أن أجاوز تلك المنطقة ، ولا أنا بقادر على
الدُّنُو من دار الأحزان .

وصك صمعي صوتٌ يناديني في احتياج ، ولم يكن
الصوتُ غريباً عني فالتفتُ إليه ، فوقع بصري على الغلامِ
« عثمان » ابنِ البوابِ ... رأيتُهُ يهرعُ إلىَّ وهو يتصايحُ
قائلاً :

ألا تعلمُ ؟ ... « وفيق » مات ... عساكر الإنجليز
ضربوه بالرصاص ...

فاختلجتُ أوصالي وأمسكتُ بكتفيه أهرُهما
وأنا أرددُ :

الرصاص ؟ ... كلام فارغ ... ما « وفيق » وعساكر
الإنجليز .

فملاً بصوته يقول :

لم أكذب ، والله العظيم ... ضربوه بالرصاص ...!
ومكثتُ قُبَالَتِهِ ، أعاود إليه النظر ، وأنا في دهشة
غامرة ، وألفيتُني أقول في ذُهور :
متى ؟ ... متى حدثَ ذلك ؟ ...

— منذ أيام ... أيام ...

وجذبته من يده وانتبذتُ به مكانا خاليا من الميدان
الفيّاح ، وأقبلتُ عليه أسائلةُ :
كيف وقع هذا الحادث ؟ ...

فبدأ على وجهه اهتمامٌ واتخذَ سَمْتَ الراوى الحَصيف ،
وتَهَيَّأ بـكِلْتَا يَدَيْهِ وكتفيه لِكَيْ يُوَدِّيَ تِلْكَ المِهْمَةَ ذاتَ
الشأن ، مهمةَ الإفضاء بما جَرَى في تفصيلٍ ومحاكاةٍ وتصويرٍ .
وانطلقَ يتكلمُ في عَجَلَةٍ وتحمُّسٍ ، وهو مبهورُ الأنفاسِ ،
مُهوَّشُ الألفاظِ ، فلم أفهمُ منه إلا النَّزَرَ اليسيرَ . فصرفتهُ

عنى فى رفقى وتحنُّنٍ ، وشرعتُ أُنقل بين المتاجر المجاورة
لدار ، أَسْتَقِ من هنا وهناك ، أَشْتَاتِ الأحاديثِ والأخبار
عن مصرع الغلام ، وكان بوابُ الدار آخِرَ من جلستُ إليه
أُتعرِف ، واستطعتُ بعد لَأْيٍ أَنْ أَصوِّرَ لِنَفْسِي ما حدث
على النحو الآتى :

كان مصرعُ الغلام قبلَ عَشْرَةِ أيامٍ ، ولكن
« الرقيب » لم يَأْذَنْ فى نشر النِّعَى فى حينه ... ومنشأُ
الحادث أن « الجَدَّ » أعنى « عبد الله بك » قد نظَّم
مظاهرةً فى شِقَّتِهِ على غِرَارِ تلك المظاهراتِ المنزليةِ
المعتادةِ ، بيدَ أَن غِلْمَاناً جُدُداً من أهل الحى كانوا
قد انضمُّوا إلى زمرةِ « وفيق » وهم أكبرُ سناً وأكثرُ
جرأةً ، فخرجوا بالمظاهرة من الشُّقَّةِ إلى الشارعِ ،
وحاولتُ أُمُّ « وفيق » أن تحوِّلَ بينهم وبينَ الخروجِ فلم
تستطعْ إلى ذلك سبيلاً ... ولما تراءتِ المظاهرةُ فى الميدانِ

اجتذبت إليها أعين الناس ، فتسارع إليها السابلةُ يشتركون فيها زرافاتٍ . واعتلى « وفيق » كَتَفَ شابٍّ فارحٍ القامةِ متينِ البنيانِ ، وكان « وفيق » يمسكُ بيدهِ العلمَ المصرىَّ الأصيلَ « علمَ الاستقلال » وهو يُحَقِّقُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً فيهِزُّ النفوسَ معه غَيْرَةً وَحِمَّةً ... وفي ذلك الحين برزت كتيبةٌ عسكريةٌ من تلك الكتائبِ الإنجليزيةِ التي دأبت على التَّطَوُّفِ في الشوارعِ للاستطلاع ، فانبرت للمظاهرة تُطَلِّقُ عليها قذائفَ الرِّصاصِ ، وأصابَتِ الغلامَ إحدَى الطَّلَقَاتِ ، فهوى مَصْرَجاً بِدَمِهِ ، والعلمُ من فوقه يَجُلُّهُ ، وما هي إلا أن هرولتِ الأمُّ إلى ابنها تحمله جثةً هامدةً إلى الدار ، وهي مُوَلَّوَةٌ تُنوح ... وأما « الجَد » فما كاد ينمى إليه الثَّبَأُ ، حتى اشتدت به اللوثةُ ، واندفع من الشُّقَّةِ في حَنَقٍ واختلاطٍ ، وهو يَقْسِمُ لَيَنْتَقِمَنَّ لحفيده من قَاتِلِيهِ ... على أن ساقِيَه خَذَلَتَاه فتساقطَ علي الدَّرَجِ ،



مرولت الأم إلى ابنها تحمله جثة هامدة ... وهي مولودة تنوح

وكان ذلك آخرَ عهدِه بالحياة ... وأما الأمُّ فلم تستطعُ بقاءً
في هذه الدار ، بعد ذلك اليوم الفاجع الأليم ، فهجرتِ
الشَّقةَ إلى غير رَجعةٍ ، وارتحلتْ إلى حيث لا يدرى أحدٌ ...

لبثتُ في الشَّعرِ بضعةَ أيامٍ أُجِدُّ في البحثِ عن « بهية » ،
 وأتَقصَّى خبرها ، هنا وهناك ، ولم أُحْجِمْ عن زيارة مسكنها
 في تلك الحارةِ المُرِّيَّةِ ، فعلمتُ من ربةِ الدار أن « نواعم »
 قد تخلَّت عن الشِّقَّةِ ، ولم يعد لها علاقةٌ بها . وأن غائبةً
 أخرى حلتَّ فيها محلَّها .

وبعدُ بجهْدٍ جيِّدٍ عرفتُ أين تُقيم . إنها تسكنُ شِقةً
 متواضعةً في شارعٍ ينزوي عن العيونِ بحىٍّ . « محرم بك »
 فنحوتُ نحوهَ على عَجَلٍ ، وقد تلهَّبتُ نفسي حُبِّنا إليها ،
 وشَغَفًا . بلقاءها . وما فكرتُ لحظةً فيما يجب أن أقوله
 ساعةَ اللقاء ، فلم يكن ثمةَ ما يشغل بالي إلا أمرٌ واحدٌ :

أن أراها .

وطرقتُ الباب ..

وصافحَ سَمْعِي خفقَ أَقْدَامِ اشتدَّ له وجيبُ قلبي ...
وانفتحَ البابُ ، فإذا هي مائلةٌ أُمَامِي ، في لبَّوسِ
الجَدَادِ ، وكان أولُ ما راعني منها صرامةٌ ملامِحِها على الرغمِ
مما كسا وجهها من ذُبُولٍ وشُحُوبٍ .

وما إن تبيَّنتني حتى شهقتُ من المِباغَةِ ،
وهي تُنْفِمْ :

« فهم » ... أنت ؟ ... !

فقلت :

لم أعلم بالفاجعةِ إلا منذُ أيامِ قِلَالٍ ... قد ظَلَلْتُ
منذ علمتُ ، أبحثُ غنك ... كان لابدَّ لي من لُقيالك .

وفسحتُ لي الطريقَ ، فدخلتُ ...



وانقذ بيننا الصمت ... وكان صمتاً أشد اضطراباً وهيجة ..
من التصايح والضجيج !...

واحسوتنا حجرة ضيقة رطبة ، فيها تشيع العمة .
واتعقد بيننا الصمت ... وكان صمتاً أشد اضطراباً
وهيجة من التصايح والضجيج .
وما هي إلا أن قالت في لهجة راعشة ، وهي ترمي
جانب الحجرة بالنظر والشرود :

لم أفقه شيئاً مما وقع ... لا أدري كيف ؟ ... لا أعلم
لماذا ؟ ... لا أوقن : أفي يقطعة أنا حقاً أم ذاك حلم
فظيع ... ؟

وأخفت وجهها في كففيها دفعة واحدة ، واستغرقت
في تشييع حار ... فأرتج على ، ومكثت هنيئة لا أنبس ...
وألقيتني أهنهم ، وأنا أعتصر يدي اعتصاراً :

خفني عنك ... هذه إرادة الله ... لا نملك إلا التسليم
بما هو مقدور علينا نحن البشر ...

فسمت برأسها ، والدمعُ على وجهها يسبحُ ، وقالتُ
في صوتٍ مخنَّقٍ :

لا ... لا أرضى بما جرى ... أنا مظلومةٌ ، والله لا يرضى
الظلمَ لأحد .

فاقتربتُ منها أبني أن آخذ يديها ، فتناوت غنى ،
وهي تقول في احتداد :

أخبرني ماذا يجبُ عليَّ أن أفعل ... إني على استعدادٍ
لأنَّ أقومَ بالمستحيل إذا أبلغني ذلك مآربي من التشنُّقِ
والانتقام ... قل ... أوضح لي الطريقَ ، فسأسألكه مها
كان وعراً عويصاً ... أرسم لي خطة العمل ... أنت من
دُعَاةِ الوطنية ... قلبك ينبضُ بالكراهية لهؤلاء
السفاحين ... دلّني على وسيلةٍ تُبَلِّغني مُبتَغَايَ ... تكلم ...
قل 1 ...

ونابتني رِعدةٌ ، وتحيرت الألفاظُ على شفّتي ...

وبعدَ لَأَيِّ تَسْنَى لِي أَنْ أَقُولَ :

أَتوسلُ إِلَيْكَ أَنْ تُشْفِقَ عَلَي نَفْسِكَ ... سنبحثُ
الأمرَ معاً في هُدوء .

فَقالتَ وهى فى حَقِّها مَتَادِيَةٌ :

أليسَ لَدَيْكَ مِنْ قَوْلٍ غَيْرِ مَا أَسْمَعَتْنِي ... عَجِيتُ لَكَ
تَطالَبْنِي بِالهُدوءِ وَأَنْتَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِحَالِي ... لَقَدْ صَحَّ
مَا كُنْتُ أَعْتَقِدُهُ فِيكُمْ ... إِنَّكُمْ لَسْتُمْ جَادِّينَ فِي دَعْوَتِكُمْ ...
أَنْتُمْ تُرْسِلُونَ الْكَلَامَ جُرَافًا ، وَمَتَى حَانَ وَقْتُ الْعَمَلِ
أَجَفَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ ... لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعُوَّلَ عَلَيْكَ ...
سَأَعُوِّلُ عَلَى نَفْسِي وَحَدَّهَا ، عَلَى نَفْسِي أَنَا ...

وَطَفَقَتْ تَدُقُّ صَدْرَهَا بِقَبْضَتَيْهَا أَعْنَفَ الدَّقِّ ،
وهى تُعَوِّلُ عَوِيلاً شَدِيداً .

وَمَلَكَنِي الْأَسَى ، وَنَهَضْتُ إِلَيْهَا أَحَاوِلُ جَهْدِي

أَنْ أُهْدَىءَ مِنْ ثَائِرَتِهَا ، متوسِّلاً إِلَيْهَا أَنْ تَسْتَمَعَ إِلَى
مَا أُسْدِي مِنْ نَصُحٍ مُؤَكِّدٍ صَدَقَ الْعَزْمُ عَلَى أَنْ أَكُونَ
لَهَا فِي مِخْنَتِهَا عَوْنًا .

وَسَكَنَ رَوْعُهَا رَوِيدًا وَقَدْ أَخْلَدَتْ إِلَى صَمْتٍ ،
وَاسْتَبَانَ فِيهَا ضَعْفٌ وَانْهْيَارٌ .

استأنفتُ صاحبتى الكلامَ فى صوتٍ مخفوضٍ :
أشكر لك هذه الزيارة ، وأعتذرُ إليك مِنَّا
بدْر منى .

— ليس المجالُ مجالَ اعتذار ... كلُّ ما أرجوه منك
أن تملكى زمامَ نفسك . وإني طوعُ أمرِك فى كل
ما تُريدُ يَنى عليه .

وتناولتُ يدها أربطها فى تحنٍّ ، وواصلتُ القول :
والآن ... ألا تصفينَ لى كيف تحيين ؟ ...
فقلتُ فى لهجةٍ مُستضعفةٍ :

ليس فى حياتى اليومَ ما يُثيرُ الاهتمامَ ... إني أحيا

كما ترى حياةً وَحْدَةً واعتِكَافٍ ... لا جديدَ عندي ...
يتشابهُ يومي وأُمسِي . . وليس لي من غدٍ أرجوه ...
فأما الماضي فلي منه أليمُ الذِّكْرِيَّاتِ ...

وغضتُ من بصرِها وقد انثنتُ على ثوبِها تمبثُ
بأطرافِهِ وهي تُهمِّمُ :

لم يُعدْ « لِنَوَاعِمَ » في الوقتِ الحاضرِ من وجودٍ ...
لقد اختفتُ إلى الأبدِ ... وكذلك « بهية » ... رحلتُ
برحيل أسرتها عن دنيانا الراهنةِ إلى العالمِ البعيدِ .

ورقعتُ رأسها تواجهني بقولها :

أنا الآنَ : « أشجانُ » ...

فهينمتُ :

« أشجانُ » ؟! ...

— ذلكَ هو الاسمُ الذي اخترتهُ لنفسِي في حياتِي

التي أحيها اليوم .

ولم تَزِدْ على ذلك شيئاً .

وأظَلَّتْنا سَحَابَةٌ صَنَتِ ، وما هي إلا أن تَوَارَدَتْ على
مُخَيَّلَتِي مشاهدٌ من حياتِها السالفتين : حياة « نواعم »
وحياة « بهيمة » ، وتراءت لي صورتي بين هذه المشاهدِ ،
تَدَامِجُها دونَ انفِصام .

لقد كانت تربطني بصاحبتي ذاتِ الشخصيتين
المتباينتين ، عاطفةٌ قويةٌ ، راسخةٌ الجذورِ ، تجعلُ من
شخصينَا وَحْدَةً وثيقةً عَراها .

وعَدَلِ بِي الخاطرُ إلى « أَشْجَان » أحاولُ أن أخطِطَ لها
« صورةً » في وضعها الجديد : كيف تحيا ؟... كيف تُقالِبُ
الصعَابَ من حولها ؟... ماذا عسى أن يكونَ موقفُ منها ؟...
إِن « أَشْجَان » في نظري « مولودٌ » سَوَّتهُ أحداثُ
قاسيةٌ ، ظالمةٌ ، ورمَتْ به في صحراءِ قاحلةٍ ماحِلَةٍ ،

فما كما ينمو عشبٌ ألحٌ عليه الضمور ، وأضرَّ به الجفافُ ،
ما أظمأهُ إلى قطراتٍ من ماءٍ يُبَلُّ بها صداهُ ، ويستمدُّ منها
الحيويةَ والازدهارَ ، فلمَ لا أكونَ أنا هذهِ القطراتِ
التي تمنحُها الرِّىَّ والترغُّعَ من جديدٍ ؟ ...

وأشرعتُ إليها بصرى وقلتُ :

لقد حدثتني أن أسرتكِ رحلتُ عن هذه الدنيا ،
ولم يبق منها أحدٌ ، وغاب عن بالكِ أن تذكرى
شخصاً يعدُّ نفسه عضواً أصيلاً من أعضاء هذه الأسرةِ ،
وما زال حياً يُرزقُ ، غايةً مناهُ أن يكونَ معواناً لكِ
في الحياة ، وأن تُنزليه من نفسك منزلةَ الصديقِ الوفيِّ
الأمينِ ، تثقين به ، وتمولينَ عليه .

ونظرتُ إلىَّ بعينين مخضلتين ، وقالتُ :

أشكر لك شعوركِ الطيبَ نحوى يا « فهم » ...

وأقدر إخلاصك ووفاءك ... بيد أنني مُشفقةٌ عليك ...
إني امرأةٌ ضائعةٌ ، ولن تستطيعَ أن تفعلَ من أجلي
شيئاً! ...

— أستطيعُ أن أفعلَ الكثير ، إذا رأيتُ منكِ
استجابةً وموازرةً .

— وما الذي أنت تعزِمه ؟ ...

— أحاولُ أن أخرج بكِ من مَحْبِسِكِ هذا إلى
الحياة والنور .

— لقد وهبتُ حياتي لذكرى ولدى ، وإني لأحيا
بهذه الذكرى ، لا أبثني بها بديلاً .

— من أجل هذه الذكرى يجبُ أن تعرفي واجبكِ
نحو نفسك ، ونحو الحياة من حولكِ . لن تستطيعي
أن تمجّدي ذكرى ولدكِ على الوجه الصحيح إلا إذا أقبلتِ

على الحياةِ تُصاوِلينَهَا وتُتَالِمينَهَا ، مَا وَسِعَكَ أَنْ تَفْعَلَ .
وبعدَ سَكْتَةٍ قَصِيرَةٍ اسْتَأْنَفْتُ الْقَوْلَ فِي حَزْمٍ
وتوكيدٍ :
من أَجْلِ وَلَدِكَ يَجِبُ أَلَّا تَرْكَبِي إِلَى الْيَأْسِ ...

قلتُ « لأشجانَ » :

أَتَسْحِينِ لِي أَنْ أَسْتَوْضِحَ مِنْكَ بَعْضَ أُمُورٍ
تَعْلُقُ بِحَيَاتِكَ؟ ...

— سَلْ مَا بَدَا لَكَ! ...

— أَلَدَيْكَ مَوْرَدُ رِزْقٍ تُنْفِقِينَ مِنْهُ؟ ...

— عِنْدِي مُدَّخَرٌ مِنَ الْمَالِ يَكْفِينِي ... إِنِّي أَفْنَعُ
الْيَوْمَ بِالْقَلِيلِ .

— لِمَاذَا لَا تُزَاوِلِينَ عَمَلًا مُجْدِيًّا يُدِرُّ عَلَيْكَ رِبْحًا؟ ...

— لَا طَاقَةَ لِي بِعَمَلٍ ...

— أذكرُ قولك لي فيما مضى إنك تُجيدُ فنَّ تفصيل
الملابس وحياكتها ، فلماذا لا تستغلين هذه الكفاية
والخبرة في عمل يشغل الوقت ويكسب المال ؟ ...

— أتريدني على أن أتخذَ الحياكة مهنةً لي ؟ ...

— أطمع في أكثر من ذلك ... أن تُنشئ « مشغلا »
يتعلم فيه الصِّبَايا الصِّغيرات فنَّ التفصيل والحياكة ،
ستكونين أنتِ رئيسة « المشغل » ، وستُشرفين على تنشئة
هؤلاء الصِّبَايا ليتعلَّمن كيف يكسبنَ عيشهنَّ في الحياة ...
ما أجزلَ ثوابك عندَ الله بهذا العملِ الكريم !! ...

فشدتْ نظراتها لحظاتٍ ثم هممتُ :

لا أجدُ في نفسي هوًى لمثلِ هذا العملِ ، لا طاقةَ
لي به ، ولا صبرَ لي عليه .

واستكملتُ حديثي أقولُ :

إني على استعدادٍ للعمل معك في هذا « المشغل » ...
سأكون شريكاً لك ... من يدري؟ ... ربما صادفنا
النجاح ، فيكبر « المشغل » ويكون في الغد القريب
مهداً ذا شأن .

أنت تبني آمالك على الأوهام .
فألفيتني أتابعُ قولي في تحسُّس :
ولسوف نُسَمَّى « المشغل » ، « مشغلَ وفيق للحياة »
والتفصيل « ! ...
فأشرعت إلى عينيها وقد اتسعت حدَقَتَاهُمَا ،
وطفقت تردُّدُ :

« مشغل وفيق للحياة والتفصيل » ١..

— وسنضعُ صورةً مكبرةً « لوفيق » في صدرِ القاعةِ
الكبرى ، من دارِ « المشغل » يراها كل زائرٍ حينَ يقدِّمُ

وحينَ ينصرفُ .

وظلَّ بصرُها عالقاً بوجهي ، يسألني المزيد ،
فانطلقتُ أقول :

سيَعمرُ « المشغلُ » بهذا النَّشء الصغير ، وسنكون له
معاً بمثابة أبوين يتعهدانه بالرعاية والحب والحنان .

وانفسَحَ لي مجالُ القول ، وصاحبتني مصبغةٌ لحديثي
تلتقاهُ في تشوُّفٍ وشغفٍ ، وإذا أنا أَصِفُ لها المشغلَ
وحُجراته ، ونظامَ العملِ فيه ، وحفلاتِ الشاي التي تقيها
حفاوةً بمن يَفِدُّون عليه للزيارة والتعارُف . وفي هذه الحفلاتِ
تمثِّلُ صبايا المشغلِ قصصَ المقاومة الشعبية ، والترصدُ
للأعداء ، ويُنشِدُن أناشيدَ الوطنية التي تتجلَّى فيها روحُ
البطولة والفداء ...

ورأيتها تسرَّحُ نظرها كأنما تستعيدُ ذكرياتٍ عزيزةً
من الماضي الشَّجيِّ ، وقالتُ حاملةً اللهجة ، مختلجة الشَّفتين :

البطولة... المقاومة الشعبية... الكمين... «وفيق»!...

ثم نهضت في هدوء وغابت. بعض حِينٍ .

ثم رجعت وبينَ يديها صورةٌ مكبرةٌ لولدها ، يَزِينُهَا
إِطارٌ ثمينٌ ، وقالتُ وهي تَرْنُو إلى الصورةِ تَتِمَلَّأُهَا
في تَحْبُبٍ :

ألا تَرَاهَا صَالِحَةً لِتَزْدَانَ بِهَا القَاعَةُ الكُبْرَى ...؟

سار كلُّ شَيْءٍ كما كنتُ أرجو .

وانتقلتُ « أشجانُ » إلى دارٍ أخرى ، من دُورِ الحى
نفسه ، فيها سعةٌ ، وعليها رونقٌ ... دارٌ تُحيطُ بها حديقةٌ
صغيرةٌ مأنوسةٌ ، وقد جعلتُ صاحبتي من هذه الدار
الجديدةً مسكنًا لها ومقرًّا للمشغل .

وعكفنا نحنُ الاثنانِ على إعدادِ المشغلِ إعدادًا يفي
بحاجةِ عاملاته ، وكنا مُنفى بالحديقة ، نحسنُ تنسيقها ،
ونستنبِطُ فيها طرائفَ الأزاهيرِ .

وكانتُ « أشجانُ » تستقبلُ عملها الجديدَ في حفاوةٍ
وجِدٍّ ، وقد أخذتُ جهامتها تنقشُ ، وانطواؤها على نفسها

يَتَزَايَلُ ، واستعادَ مُحيّاها بعضَ إشرافه القديم .

وكنّا في سويّاتِ الفراغِ نخرجُ إلى الحقولِ المجاورةِ
نستروحُ ، آخذين في حديثِ فضفاضٍ يتّصلُ بالمشغلِ
ورؤاياه ، وَبِرَناَمَاجِ نشاطِهِ . وَكنتُ أُستَفِيزُ في الحديثِ
عن حياتِها المُستقبَلَةِ ، أحاولُ أَنْ أبْنِيَهَا على أساسِ قويمٍ ،
وَأَنْ أصوِّغَهَا في نموذَجِ رَفِيعٍ . وكانَ يسعدُنِي أَنْ أَلَسَ
منها حَسَنَ استعدادٍ لتطوِيرِ حياتِها ، والعُدُولِ بها إلى سلوكِ
فاضلٍ مُثَمِّرٍ ، فقدَ حَمَلْتُ «أشجانُ» في قَرَارَةٍ نَفْسِها بِذُورِ
كَرِيمةِ اليَقِيَمِ الإنسانيَّةِ ، لا تلبثُ أَنْ تَنموَ وتترعرعَ .

وأحسستُ منها شوقًا إلى الارتواءِ من منهلِ المعرفةِ ،
وبخاصَّةِ ما كانَ متعلِّقًا بتاريخِ البطولةِ ، وأعْجَادِ الوطنِ ،
فكأنّما تحاولُ أَنْ تستبدِلَ بأساطيرِ أيَّها وأوهامِهِ
التي كانتْ تعمُرُ رأسَها على كُرْمِ منها ؛ - حقائقَ مفيدةً
من التاريخِ تَطْمَئِنُّ إليها وتأنسُ بها . فلمَ أَكنُ أَضِنُّ عليها

بما يبلغها الغاية التي ترمو ، وانصرفتُ إلى الدرس والمطالعة ،
أترودُ ما وسعني أن أترودَ لكي أوافيها بالزبدة
مما أفدنتُ .

بيد أن ظلالاً قاتمة كانت تكسو وجهها أنا بمدّ أن ،
فيغشاها سهمٌ جياشٌ ، لا تلبثُ على أثره أن تطلقَ في
اهتياجٍ ناثِرٍ ، متحدثةً عن مصرع ولدها ، ووجوب القيام
بتدبير حاسمٍ إزاء هؤلاء السفاحين الآثمين ، الذين انتهكوا
حرمة الوطن ، واستباحوا دماء الأبرياء .

فكنتُ آخذُ بكفها وأشدُّ عليها ، مجذّأً قولها
الحماسيَّ ممجّداً شعورها الوطنيَّ ، فتحدّجني بنظرةٍ مُحْتَدِمَةٍ
وهي تعقبُ قائلةً :

أليسَ ثمةَ من خطّةٍ صريحةٍ تنصحُ لي بإفادها ؟ ...
أين ما كنتَ تتشوق به من حميةٍ وطنيةٍ ؟ ...
— إن وطنيتي لم تخمدُ ، وستظلُّ متقدّمةً ما حيبُ .

— إنها وطنية كلام ، ليس من ورائها جدوى .

— المنهج الذى أرسمه يتنزه عن المظهر البراق .

فقلت فى لهجة ساخرة :

أتراك تُضمر « ثورة » فى طى الكتمان لا تبوح
بسرّها لأحد .

— وما اتفأنا « بالثورة » فى الوقت الحاضر .

وأين هم الذين يستطيعون إضرام نارها ، والنفخ
فى رُوحها ، والبلد منسوب الحول والطول ، محكوم
بالحديد والنار ، وأهله — إلا أقلهم — فى غفلة ساهون...
لم يحن وقت إعلان الثورة بعد . أكبر ما فى مقدورنا
أن نملكه « اليوم » هو أن نعهد لهذه الثورة ، أن نبشرها ،
أن نقرس نواتها فى الصدور .

— وكيف يكون ذلك ؟...

— بُصِّرُ الْمَوَاطِنِينَ بِحَالِهِمْ ، وَنَوْظُ وَغِيهِمْ ،
وَنَسْتَشِيرُ هِمَمَهُمْ ، وَنَعْرِفُهُمْ بِحَقُوقِهِمُ الْمَهْضُومَةِ ، وَمَاهُوَ مَلَقَى
عَلَى عَوَاتِقِهِمْ مِنْ فُرُوضٍ وَوَاجِبَاتٍ ... دُونَكَ مَشْغَلَنَا
الْقَتِيدَ ، أَسْوَاقُهُ إِلَيْكَ مَثَلًا . إِنَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ
هَذَا النَّشَاطِ الْوَطَنِيِّ ، فِيهِ تَكْتَسِبُ عَامِلَاتُهُ فَنَ الْحَيَاكَةِ ،
وَكَذَلِكَ نَلْقَاهُنَّ دَرَسًا فِي الْأَمَانِيِّ الْقَوْمِيَّةِ . نَعْدُهُنَّ لِيَكُنَّ
مَوَاطِنَاتٍ رَشِيدَاتٍ ، وَأُمَمَاتٍ لَجِيلٍ جَدِيدٍ يَعْرِفُ تَبْعَاتِهِ
نَحْوَ بَلَدِهِ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، وَيُقَدِّرُهَا خَيْرَ التَّقْدِيرِ .
فَأُطْرَقَتْ تَقُولُ فِي نَبْرَةٍ مُتَحَدِّيةٍ :

يَا لَهُ مِنْ نَشَاطٍ مَحْدُودٍ ضَنْبِيلٍ ... وَهَلْ يَكُونُ لِمِثْلِ
هَذَا الْمَجْهُودِ التَّافِهِ فِي حَيَاةِ الْأُمَّةِ أَثَرٌ مَذْكُورٌ؟ ...
— لَوْ نَهَضَ كُلُّ رَائِدٍ مِنْ رُؤَادِ الْأُمَّةِ بِمِثْلِ
مَا نَهَضُ بِهِ ، لِأَصَابَ وَطَنُنَا أَهْدَافًا بُعِيدَةَ الْمَدَى .
فَرَمَتْنِي بِنَظَرَةٍ مِنْ نَظَرَاتِهَا الثَّاقِبَةِ ، وَقَالَتْ :

وَأَيْنَ مَكَانَ الْإِنْتِقَامِ ، وَمَتَى الْأَخْذُ بِالنَّارِ ، مَتَى ؟؟ ...

— لَا طَاقَةَ لَنَا بِالْإِنْتِقَامِ الْيَوْمَ ... سَنَنْظِلُ إِلَى حِينِ
مَوْثُورِينَ ... إِنَّا نَعْمَلُ لِلْغَدِ الْمَنْشُودِ ... وَلَنْ يَطُولَ بَنَا
أَمَدُ التَّرْقِبِ وَالْإِنْتَظَارِ .

ثَلَاثٌ فِي لَهْجَةٍ ، هِيَ مِزَاجٌ مِنْ إِشْفَاقٍ وَتَهَكُّمٍ :

• هَذَا كَلَامٌ يُصْدَرُ عَنْ شَيْوِخِ مُحَافِظِينَ ذَوِي خَشْيَةٍ
وَمُحَازَرَةٍ ، لَا عَنْ شَبَابٍ مَتَوَثِّبٍ جَرَى يَفِضُ بِالتَّحَمُّسِ ،
وَلَا يَرْهَبُ خَوْضَ الْمَغَامَرَاتِ وَالْأَخْطَارِ .

فَرَنُوتٌ إِلَيْهَا فِي إِخْلَاصٍ مَحَبٍّ وَلَهَانَ ، وَهَمَّهَمْتُ :

مَنْ أَجْلَكَ يَا «أَشْجَانُ» أَمَنْتُ بِرِزَانَةِ الشُّيُوخِ وَتَعَقَّلُ
الْمُحَافِظِينَ ... مَنْ أَجْلَكَ آثَرْتُ الْخَشْيَةَ وَالْمُحَازَرَةَ .

— مَنْ أَجْلِي أَنَا ؟ ...

— نَعَمْ يَا «أَشْجَانُ» ... أَلَا تَدْرِكِينَ ؟ ... إِنَّ «النَّارَ»

عَفْ وَتَهَوُّهُ يَرْضَانِ حَيَاتَكَ لَخَطَرٍ مُحَقَّقٍ ، وَلَنْ نَكْسِبَ
مِنْ وِرَائِهِ شَيْئًا ... وَأَنَا الْيَوْمَ أَحْرَصُ مَا أَكُونُ عَلَى
سَلَامَتِكَ ... حَيَاتُكَ هِيَ حَيَاتِي ، بَلْ هِيَ أَعَزُّ عِنْدِي
مِنْ حَيَاتِي ... لَنْ أَدْعَلَ تَعْرِضِينَ لِمَكْرُوهِ ...
وَأَمَحْنَيْتُ عَلَيْهَا أَطْبَعَ عَلَى جَبِينِهَا قَبْلَةً عَمِيقَةً ، حَافِلَةً
بِأَكْرَمِ مَعَانِي الْوَفَاءِ وَالْإِعْزَازِ ...

حَسْبِ المرءِ منا أن يَعرُوهُ من الأمرِ ما يُبدِّلُ يَسْتَه
وملابساتِ حياتِه ، وما يَحِقُّ بِهِ من بواعِثَ وموجِّهاتٍ ،
لكي تَراهُ قد تَبَدَّى في صورةٍ أُخرى ، لا تَكَادُ تَمُتُ
بصلةٍ إلى الصورةِ الأولى .

لشدَّ ما تَغَيَّرَ كلُّ شَيْءٍ حَوْلِي ...

ما أَكْبَرَ ما لِحَقَنِي من تَطَوُّرٍ ...

بل لشدَّ ما تَبَدَّلَتْ «صاحِبَتِي» خَلْقًا آخَرَ ، ودَخَلَتْ
في طَوْرٍ جَدِيدٍ ، لَبَسَ فِيهِ مِنَ الْمَاضِي إِلَّا ظِلَالَهُ
رَقِيقَةً ضِئَالَهُ .

أَيْنَ اليَوْمِ مِنَ الْأَمْسِ ؟ ...

أَيْنَ « أَشْجَانُ » الْآنَ مِنْ « بَهِيَّة » وَمِنْ « نَوَاعِمِ »
الَّتَيْنِ عَقَّتْ عَلَيْهِمَا أَحْدَاثُ الزَّمَانِ ؟ ...

بَوْنٌ شَاسِعٌ بَيْنَ شَعُورِيْ نَحْوَهَا فِي أُمْسَى الدَّابِرِ ،
وَشَعُورِيْ نَحْوَهَا فِي يَوْمِي الْخَاضِرِ ! ...

إِنِ ذَلِكَ الْاِشْتِهَاءَ النِّشْوَانَ ، الَّذِي كَانَ يُلْهَبُ
مِشَاعِرِيْ كُلَّمَا دَنَوْتُ مِنْهَا أَوْ نَأَيْتُ عَنْهَا ، وَالَّذِي كَانَ
يَجْعَلُ مِنِّي حَيَوَانًا عَرِيْدًا فِي إِهَابِ إِنْسَانٍ ، لَا أَجْدُ
لَهُ فِي نَفْسِي السَّاعَةَ إِلَّا مَا يُشْبِهُ الصَّدَى الْبَعِيدَ ...
لَقَدْ أَخَلَى مَكَانَهُ مِنْ جَوَانِحِي لِمَاطِفِ نَبِيلَةٍ هَادِثَةٍ ، مَلَّوْهَا
تَأَلَّفٌ وَتَعَاطُفٌ وَصَفَاءٌ .

أَنَا الَّذِي كُنْتُ خَلِيلًا لَتِلْكَ الْغَايَةِ فِيمَا سَلَفَ ،
صِرْتُ فِي يَوْمِي هَذَا خَاطِبًا لَهَا أُعِدُّ مَعَهَا عَشَّ الزَّوْجِيَةِ
لِغَدٍ قَرِيبٍ .

لم أعُدْ ذلكَ الشابَّ ، الفارغَ القلبِ من شواغلِ
 العيشِ ، يقضىَ مائةَ نهارِهِ وهزيعَ ليلِهِ على حواشيِ
 المشاربِ ، يُثَرِّرُ ويلقي بالكلامِ جُزَافاً دُونَ تَرَوُّ
 أو تعقُّلٍ . ثم تلبُّ به تَهَوِّعَاتُ يُشِيدُ بها قصوراً على
 متنِ الهَوَاءِ .

لقد رَسَمْتُ لِنَفْسِي خُطَّةً ، ونصبتُ لِحَيَاتِي هدفاً .
 وهأنذا جادٌ كُلُّ الجَدِّ في إنفاذِ تلكَ الخُطَّةِ وإصابةِ
 هذا الهدفِ بكلِّ ما أُوتيتُ من عَزَمٍ وحَزَمٍ .

إن « مشغلَ وفيقَ للحياةِ والتفصيلِ » لن يكونَ
 إلا نُقْطَةُ بدايةٍ وخطَّ انطلاقٍ ، حوله تتجمعُ
 الأمانِيُّ الجِسَامُ .

لن ينظرَ هذا المشغلُ متوحِّداً يعملُ في دائرةٍ
 ضيقةٍ . . إِنِّي لَأَمَثَلُهُ خَلِيَّةً عامرةً تكتنِزُ فيها الشُّعُنَاتُ

الضَّخْمَةُ من الحيويَّةِ والنشاطِ ، وسُرْعانَ ما تتكاثرُ
حولها خلايَا جديدةٌ ، لكلٍّ منها طابعٌ تميّزُ به ،
ووظيفةٌ تنهَضُ بها ، ولا غرضَ لهذه الخلايا إلا خيرُ
المجتمع ونفعُ الوطن .

ستتخلَّق من هذا المشغل بلا ريب مؤسساتُ
لفروع شتَّى من الصناعات ، وفي هذا الحقل الخصب
نستطيعُ نحن « الرؤّاد » أن نعملَ على إعدادِ نشءٍ جديدٍ
مُشبعٍ بروح قويّة ، وإيمانٍ عميقٍ .

على هذا الضوءِ سلكتُ سبيلي مع « صاحبتى »
المحبّية ، ولم يمضِ مديدٌ وقتٍ حتى أضحتُ المشغلُ
حقيقةً واقعةً ، يتهاجُرُ لاستقبالِ رائداتِهِ فى موعدٍ وشيكٍ .
ووزعنا « الثُّمراتِ » الضّافية ، محلاةً بالصُّورِ
على سكانِ الحىِّ وغيره من الأحياءِ المجاورةِ له ،

فَأَقْبِلْ عَلَيْنَا الْأَهْلُونَ يَتَسَاءَلُونَ وَيَتَعَرَّفُونَ ، وَمَا لِبَشَرٍ
أَنْ تُوَجَّهُوا بِرَغَبَاتِهِمْ إِلَيْنَا أَنْ نَسْجَلَ أَسْمَاءَ بَنَاتِهِمْ فِي سِجْلِ
طَالَبَاتِ الْإِلْتِقَاءِ .

ويوما كنتُ و « أشجانُ » في الحديقةِ ننسُقُ أُصُصَ
 الرِّياحِينِ ، فقَصَدْنَا بَعْدَ لَأَيِّ إِلَى دَكَّةٍ مِنْ خَشَبٍ ،
 وجلسنا عليها نستريحُ .

وأظَلَّتْنا غَاشِيَةٌ مِنْ صَنْتٍ ، وانصرفتُ أَفْكُرُ
 دُونَ ما قَصَدِ في يومِ الْإِفْتِتاحِ متى يَكُونُ ، ولم نَكُنْ
 قد ضَرَبْنَا لَهُ مَوْعِدًا بَعْدُ ...

وترسلُ على سَمَى صَوْتَهَا وهي تُهَمِّمُ :

ألا ترى أَنَّ عِيدَ مِيلادِ « وَفِيْقِ » أَوْ عَلَى الْأَصَحِّ
 « ذَكَرَى مِيلادِهِ » أُولَى الْمُناسَباتِ لِحَفْلِ الْإِفْتِتاحِ ؟ ...
 يَوْمُ الذِّكْرَى بَعْدَ أُسْبُوعَيْنِ .

فروتُ إليها أتاَمَلُها في دَهْشَةٍ حَيْرَى ، وقد راعني
توارَدُ خاطري وخاطرِها في هذا الشأن .

ثم خَفَضْتُ من بصرى وقلت :

عظيم ... هذا يومٌ تاريخيٌّ في حياةِ الأسرة ...
اختيارٌ موفقٌ كلَّ التوفيقِ :

وعكفنا نعملُ في جدٍّ على استكمالِ مُعداتِ المشغل ،
وعُنيْنَا أيَّما عنايةٍ بِبرنامِجِ « حفلِ الافتتاح » ، وانتهى
رأيُنَا إلى أن يكونَ برنامِجًا طريفًا ، أكثرُه موسيقى
وأناشيدُ وألعابٌ ، وأقلُّه كلامٌ ...؟

وبكرةٍ أقبلتُ على « أشجانُ » محتاجةً ، ويدها
ورقةٌ تبَيَّنَتْ فيها أياتاً من الشعر ... وعلي الفورِ شرَعَتْ
تقرأ ، مرفوعةً الهامة ، جَبيَرةَ الصوتِ :

يا بلادي . يا بلادي لكِ حبي وفؤادي
أنا أفديكِ بروحي وبغزبي وجهادي

مصر يا قُرَّةَ عيني أنتِ في الدنيا مرادى
نيلك الصافي : حرامٌ أن يُحَلَّى للأعادي
نحنُ أحرارٌ كرامٌ مجدُّنا في الدهرِ بادٍ
فقلت وقد أثار الشعر حميتي :

قطعة رائعةٌ ، وقد أحسَّنتِ إلقاءها .

فأجابتنى ، وهي تمسحُ العرقَ عن جبينها :

سأجعلُها نشيدَ الاحتفالِ ...!

— رأى سديدٌ ، وأين أصبتِ هذه الأبياتِ ؟ ...

— فى أوراقِ أبي ... لا أدري مَنْ قائلها .

وما أسرعَ أن استأجرنا « ياناً » لعزفِ الألحانِ ،
وألحقنا بالمشغل أحدَ العازفينَ الموسيقيين .

وشرعنا نمرُّنُ الصَّبَايَا على الإنشادِ ونترنُّن

على الألعاب .

وكان يَلْدُ « لِأَشْجَانِ » أَنْ تَجْمَعَ صَبَايَاهَا تَحْتَ صَوْرَةِ
« وَفِيٍّ » فِي الْقَاعَةِ الْكُبْرَى ، وَتَشْرَكُهُنَّ فِي اللَّعْبِ
وَالْإِنْشَادِ ، مُسَبِّغَةً عَلَيْهِنَ الْعَطْفَ وَالْحَنَانَ ، ثُمَّ لَا تَدْعُهُنَّ
حَتَّى تُوْزَعَ عَلَيْهِنَ قَرَاطِيسَ الْحَلَاوَى كَمَا كَانَ يَصْنَعُ أَبُوهَا
مَعَ ضِيُوفِ « وَفِيٍّ » ...!

وَتَوَثَّقَتْ بَيْنَ « أَشْجَانِ » وَهَزْلَاءِ الصَّبَايَا عُرَا أُلْفَةٍ
عَمِيقَةٍ ، وَوُدٍّ مُوْصُولٍ ، وَأَصْبَحَ الْمَشْغَلُ رَوْضَةً أُنَيْسَةً لَهُنَّ
يَنْعَمْنَ فِيهَا بِوَقْتِ هَانٍ حَبِيبٍ .

وَمُضِيْنَا نُوْزَعُ بِطَاقَاتِ الدَّعْوَةِ عَلَى أَهْلِ الْحَى .

حان يومُ الافتتاح ...

فبكرت إلى « المشعل » ، وما إن وطئت قدماي
 القاعة الكبرى ، مثابة الاحتفال ، حتى لجاني مرأى
 « الراية المصرية الوطنية » ، شعار الاستقلال ، مرفوعة
 في صدر القاعة تظلل صورة الطفل الفقيد ، وبان لى أنها
 هي الرواية التى كان « وفيق » يحملها يوم مصرعه ،
 فقد بدت مخضبة بالدم ، لا تخلو ديباجتها من تمزيق .
 وتراوت « أشجان » على باب القاعة ، فهرعت
 إليها أقول :

ليس من الحكمة ، يا صاحبتى ، أن تظهر هذه الراية

على أَعْيُنِ الحَاضِرِينَ .

فَقَالَتْ فِي اعْتِدَادٍ وَثَبَاتٍ :

لِمَ ؟...

— قَدْ تُثِيرُ هَذِهِ الرَّايَةُ مُشْكَلَةً نَحْنُ فِي غِنَى عَنْهَا .

فَأَجَابَتْ وَهِيَ عَلَى حَالِهَا لَمْ تَتَغَيَّرَ :

أَيَّةُ مُشْكَلَةٍ ؟...

— لَا تَنْسَى أَنَّنَا نَحْيَا فِي جَوْ مُكْهَرَبٍ ... قَدْ يَتَسَامَعُ

أَصْحَابُ « السُّلْطَةِ » بِنْيَا هَذِهِ الرَّايَةِ ، فَيَعُدُّونَ ذَلِكَ إِثَارَةً
لِلشُّعُورِ الْوَطَنِيِّ ضِدَّ الْغَاصِبِينَ الْمُحْتَلِّينَ .

— لَا أَبَالِي ... حَسْبِيَ أَنْ تُرْفِرَفَ هَذِهِ الرَّايَةُ

عَلَى وَلَدَيَّ الْفَقِيدِ ، وَهُوَ صُورَةٌ لَيْسَ بِهَا مِنْ حَرَاكٍ ،
كَمَا رَفَرَفَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ حَيٌّ يَنْفَسُ ... إِنْ الرَّايَةُ
تَزْدَانُ بِقَطَرَاتٍ مِنْ دَمِهِ الزَّكِيِّ ، وَهِيَ كُلُّ مَا تَرَكَهُ لِي
مِنْ جَسَدِهِ الْحَبِيبِ ... !

وَمَثَلَتْ حِيَالَ « الصَّوْرَةِ » تَطْلُعُ إِلَيْهَا فِي نَشْوَةٍ ،
وَالرَّايَةَ مِنْ فَوْقِ الصَّوْرَةِ تَحْقُقُ ...

وَطَفِقَ الزُّوَارُ يَتَوَافَدُونَ جَمَاعَاتٍ وَفُرَادَى ، حَتَّى
زَخَرَتْ بِهِمُ الْقَاعَةُ عَلَى رَحْبِهَا .

وَبَدَأْنَا الْبَرْنَامَجَ ...

وَكَانَ الْإِسْتِهْلَالُ آيَاتٍ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ،
تَلَاهَا قَارِئٌ مُجِيدٌ .

ثُمَّ تَجَلَّتِ الصَّبَايَا عَلَى الْمَنْصَةِ رَافِلَاتٍ فِي أَرْضِيَّتِهِنَّ
الزَّاهِيَةِ ، فَاسْتَقْبَلَهُنَّ الْجُمْهُورُ بِتَرَحُّبٍ . وَلَمَّا أُنْشِدَ نَشِيدُ
الْإِحْتِفَالِ كَانَ التَّصْفِيقُ وَالْهَتَافُ عَلَى أَشَدِّهِ يَتَخَلَّلُ
مَقَاطِعَ الْإِنْشَادِ .

وَوَقَفْتُ أَلْقَى كَلِمَةً قَصِيرَةً أَحْيَتْ فِيهَا الْحَاضِرِينَ
وَأَشْرَحْتُ لَهُمْ أَهْدَافَ الْمَشْغَلِ .

وعلى أثرى نهضتْ جُوقَةُ الرَاقِصَاتِ من عاملاتِ
المشغلِ الناشئاتِ ، فمَرَضُنَ رَقْصَةً إِيْقَاعِيَّةً طَرِيفَةً ،
ظَفِرَتْ من الجمهورِ بالإعجابِ .

وتَبَعَ ذَلكَ بعضُ مشاهدَ تَمثيليةٍ غنائيةٍ ، تُرَاسِلُهَا
أَنْغَامُ « البَيَّانِ » .

وَسَرَتْ إلى أَسْمَاعِ السَّابِقَةِ في أرجاءِ الحىِّ أَلْحَانُ
الموسيقى ، وَأَنْغَامُ الْأَنَاشِيدِ ، وَاجْتَذَبَ أَنْظَارَهُمْ تَأْلُقُ
الأضواءُ ، فَتَهَافُتُوا على البابِ يُمَدُّونَ الْأَعْيُنَ وَيُنْصَتُونَ .
وَاسْتَطَاعَ بعضُ الشَّبَابِ أَنْ يَتَسَلَّلُوا إلى مَثَابَةِ
الاحتفالِ وَهم يَتَدَافَعُونَ بِالمَنَاقِبِ ، فَلَتُّ على « أَشْجَانِ »
أَقُولُ :

لِزَامَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْرِضَ رَقَابَةً صَارِمَةً على البابِ ،
خَشْيَةً أَنْ يَشِيعَ في الحفْلِ هَرَجٌ وَاخْتِلَالٌ .
فَأَجَابَتْنِي على الفورِ :

إني أحتفل بذكرى ولدي ، وليس الاحتفال بذكرائه
إلا تعجيداً لحادثٍ مَصْرَعِه ، ذلك الحادثِ الوطني الذي يهّم
الناسَ أجمعين ... لن أُمْنَعَ كائنًا كَانَ أن يشاركَ في هذا
الحفلِ بنصيبٍ ...!

وألفيتها تملأُ عينيها من صورة ولدها ، وسُرْعَانُ
ما تسامتْ إلى المنصّةِ في احتياج ، وإذا هي تخاطبُ المَلَأَ
فتُصْصُ ، في صوتٍ متهدّجٍ ، كيف كان مصرعُ الطفلِ
الفقيدِ ، على حين تشير إلى الصورةِ ، والرايةُ من فوقها
تَسْدِلُ .

وكان فيما قالت :

إنكم لتحتفلون معي بتلك الذكرى العزيزة ، ذكرى
ولدي « وفيقي » ... لقد اغتاله الأوغادُ ... قد وقعَ
بين أيديهم كما يقعُ المصفورُ الغريدُ الأنيسُ بين براثنِ
وحشٍ مُفترِسٍ ... لم يكن هذا المصفورُ الوديعُ يحملُ

سلاح حربٍ وضربٍ ، بل كان يحملُ رايةَ الوطنِ ، شارةَ
الاستقلالِ ، وما هي ذى مرفوعةً أمامكم تظلُّ صورةَ
الطفلِ الشهيدِ ، صريعِ الغدرِ والبغيِ والعدوانِ ... إن رايةَ
الاستقلالِ هذه تحملُ قطراتٍ من دمه الطاهرِ البريِّ ،
ولكأنى بها تناديكم أن تلبثوا دعوةَ الوطنِ ، وأن تبذلوا
دماءكم فداءً للحريةِ ...!

وأسرعَ إلى المنصّةِ شابٌ متحمّسٌ جرى ، وصاح
في صوتٍ جهورى :

إن ذكرى هذا الصغيرِ الشهيدِ لهى ذكرى وطنيةٌ
خالدة ... لم يمضِ « وفيق » إنه حى معنا ... والموتُ
للطغاةِ السفّاحين ... فليحى الوطنُ ، ولتحى ذكرى
« وفيق » ...!

وعلت في هذا الوقت أنغام « البيان » ، وانطلقت
الصبايا ، وعلى رأسهنَّ « أشجان » ينشدن :

يا بلادي يا بلادي لك حي وفوادي
أنا أفديك بروحي وبمزني وجهادي ...
وحميّ التصفيق ...

واستعيد النشيد مرات ، والحاضرون يشاركون
الصبايا في إنشاده .

وتجاوَيْت في القاعة هتافاتٍ وطنيةً عِدائيةً ، تصب
اللعناتِ على من يسفكون دماء الأبرياء ...
وتأججَ الحماسُ ، واشتدَّت الفورةُ ...
ثم تناهت إلينا من خارج القاعة جلبةٌ وتصايحٌ ...
وانطلقتِ القذائفُ مُدويةً ...

وعلمنا أن دوريةً من الجندِ البريطانيين ، قد تسمعت
بنيا الحفل وما يجري فيه ، فخفتُ إليه تفضُّه ...
وعمَّ المهرجُ والمرجُ من في القاعة ...

وامتدت يدُ « أشجان » إلى الرايةِ المخضبةِ بدمٍ ولديها
 الشهيد ، فانزعقتها وتلفعت بها ، ثم مثلت على المنصة
 تهتف بحياةِ الوطن ، وتحثُ الأهليينَ على الجهاد ...
 فتجمعَ حولها لفيفٌ من الشبانِ ، وأخذوا يرددون
 النداءاتِ الحماسيةَ ، في أصواتٍ محمومةٍ ...
 وتكاثرتِ الجمعُ حولَ « أشجان » ...
 وإذا هي محمولةٌ على الأكتافِ ...
 وإذا الجمعُ يخرجونَ بها إلى الحديقةِ ، وأنا منهم ،
 يحدوني باعثٌ ، لا طاقةَ لي بدفعِهِ ...
 وتتابعُ الأحداثُ في سُرعةٍ مذهلةٍ ...
 وألفيتني أرفعُ عقيرتي بالهتافِ ، أجارى القومَ في
 تصايحُم ، دونَ خشيةٍ ...
 واشتدَّ إطلاقُ النارِ ...



وإذا هي محمولة على الأعناق ... والراية بدم ولدها تظالها ...
واشتد إطلاق النار ... وإذا هي تترنح !...

وَأَحْسَسْتُ قُوَّةَ عَارِمَةٍ تَسُوِّفُنِي إِلَى «أَشْجَانٍ» ،
وَمَنَاكِبُ الْجَمْعِ تَمَائِلٌ بِهَا يَمَنَّةٌ وَيَسْرَةٌ ، وَالْقَذَائِفُ
حَوْلَنَا تَقْصِيفٌ ...

وَلَمَحْتُهَا تَضَعُ يَدَهَا عَلَى صَدْرِهَا وَتَتَرَنِّحُ ... !
وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ تَهَاوَتْ ، وَالرَايَةُ عَلَى جَسَدِهَا
تَنْبَسِطُ ، فَفَزِعْتُ إِلَيْهَا أَتَلَقَّاها بَيْنَ ذِرَاعِي ...

وَأَهْوَيْتُ عَلَى جَسَدِهَا أَتَمَحَّسُّهُ ، وَقَدْ شَقَّتْ حَلْقِي
صِيحَةُ هَلَعٍ ، وَأَنَا أَنْأَشِدُهَا أَنْ تُخْبِرَنِي مَاذَا دَهَاها ، فَا رَاعِي
نَ بَيْنَ جَوَانِحِهَا ، مَمْتَزِجًا بَدَمَ وَلَدِهَا
نَ الرَايَةَ الْحُمْرَاءَ ، رَايَةَ الْوَطَنِ ... !

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٩٦٧

I.S.B.N 977 - 01 - 6191 - 8



المعرفة: حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
. للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضد ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



١٢٥ قرشاً

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٢